

روايات الزمن 6
الوشم
عبد الرحمن مجيد الربيعي
منشورات الزمن

روايات الزمن 6

تصدر عن جريدة الزمن

المدير المسؤول : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف

سعيد يقطين

التحرير : محمد التهامي الحراق

الإخراج التقني : القسم التقني

الإدارة والتحرير : 153، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 ـ العكاري ـ الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 7 3 212 00

❀ ❀ ❀

الإيداع القانوني : 2002/0992

ردمك : X- 10 - 408 - 9954

طبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدار البيضاء

توزيع : سبريس

الحساب البنكي : جريدة الزمن، البنك التجاري المغربي، وكالة أبي عنان ـ الرباط

رقم الحساب : 072E001182

روايات الزمن 6

2002

الوشم

رواية

عبد الرحمن مجيد الربيعي

منشورات الزمن

الوشـم

عبد الرحمن مجيد الربيعي

طبعة مغربية، منشورات الزمن، الرباط،

2002

تقديم

أبطال من طراز مختلف [1]

حسين كاظم [2]

ترجمها عن الإنجليزية:

محمد البصيري [3]

تميز تاريخ عراق ما بعد الحرب العالمية الثانية بالصراع المستمر، ففي 1958 أطيح بالنظام الملكي الذي نصبته بريطانيا ليحل محله نظام جمهوري بقيادة الزعيم **عبد الكريم قاسم**. وقد بادر النظام الجديد برفع بعض القيود عن الحريات الفردية وإجراء إصلاحات اجتماعية واسعة كانت تهدف إلى تحسين أوضاع الفئات الأكثر فقرا في المجتمع، ومثل عهد قاسم، بالنسبة للكثيرين من سكان جنوب العراق، فترة من الأمل الكبير والتطلعات العظيمة، لكن هذه الآمال سرعان ما أصيبت بالخيبة عندما تمت الإطاحة بنظام قاسم في فبراير 1963، ومن ثم الإصلاحات التي بدأها عبد الكريم قاسم؛ وقمعت الحريات الفردية في حملات تعسفية واسعة النطاق ضد المعارضين أو من يشتبه في معارضتهم. ونتيجة لهذه الأحداث تحول الشعور بالأمل والاطمئنان إلى إحساس عميق بالخيبة واليأس؛ بلغ حد الانهزامية والانكفاء على الذات حفاظا على استمرار البقاء على قيد الحياة.

وقد ناضل عدد من الكتاب للتعبير عن هذه الحقبة، ويأتي **عبد الرحمان مجيد الربيعي** في طليعة هؤلاء.

صـــدرت رواية الربيــعي الأولى بعنــوان "الوشم" في 1972، ولاقت منذ صـدورها اهتـمامـا نقـديا كبيـرا على امتـداد الوطن العـربي. ويُعزى هذا الاهتـمام إلى طبـيعـة الموضوع الذي تناولـته، وأيضا إلى التقنيـات المبتكرة والجديدة التي انتهجهـا في كتابة هذه الرواية. وسوف تقتـصر هذه الدراسة على تحليل مضمـونها، وتسعى إلى إبراز أن هذا العـمل يمكن اعتـبـاره تعـرية وفضـحـا؛ وبالتـالي تنديدا وشجبا للانهزامية والهروب والانطواء على الذات.

لقد شـرع الربيعي، وهـو أحد أبرز الكتـاب العراقيين، فـي نشر أعمـاله بالصحف العراقيـة في عام 1962، اعتـقل الربيعي وزج به في السجن من أجل كتاباته اليسارية، فكان أن ألهمته فترة الاعتقال تلك، وتسجيلا لشهادته عنها قام بتأليف الرواية موضوع هذا البحث.

إن اسـم البطل في الرواية، كـريم الناصري، يشيـر إلى خلفيتـها. فالناصـري يمثل شخـصا من أهالي الناصرية، وهي مـدينة تقع على نهـر الفرات بجنوب العـراق، وسكان الناصـرية شأنهم شـأن أهالي جنوب البلاد، هم في غـالبيتهـم من الفقراء وينتمـون في جذورهم القـديمة إلى الفلاحـين من ساكني الأكـواخ الذين نزحـوا من الريف فرارا من الفـقر وخوفا من الاسـترقاق؛ والذي عانوا منه الكثـير على أيدي ملاك الأرض الإقطاعيين.

ويلخص الراوي مولد المدينة كما يلي:

«الناصرية مدينتنا الصـغيرة الهادئة التي قصـدها آباؤنا يوما بعد أن رموا منـاجلهم وفؤوسهـم بحثا عن عـمل جديد يلقـي في أفواه أبنائهم الجائعة لقمة لم تعد الأرض تمنحها لهم».

إن مسألة خيانة الأرض لأصحابها واقتلاعهم من بيوتهم ومزارعهم، وإرغامهم على النزوح القسري؛ ليس بالحالة المعزولة أو المقصورة على المنطقة التي تتصدى لها الرواية، ولكنها في الحقيقة ظاهرة أشمل من ذلك أصابت معظم جهات البلاد؛ ولاسيما الجنوب حيث ينتشر الفقر والحرمان بشكل خاص، ويتكرر تذمر أهالي الناصرية في الرواية : «لو أخذت كل سكان مدينتنا، لوجدتهم فلاحين حفاة قطنوا الناصرية بعد أن خانتهم الأرض ولم يكن بينهم من يطيق تناول وجبة طعام واحدة في اليوم».

إن تواتر شكوى السكان على هذا النحو إنما يهدف إلى تصوير الإحساس العميق بوطأة الظلم وفظاعته. ويشتد الشعور بالاضطهاد والقهر بالوصف المباشر لأوضاع الفلاحين: «حفاة، قطنوا الناصرية بعد أن خانتهم الأرض، ولم يكن بينهم من يطيق تناول وجبة طعام واحدة في اليوم»، وفي مستوى آخر فإن الأرض نفسها، وبتعبير مجازي، مذنبة في حقهم حيث إنه من المعتاد وجود ميثاق ما بين الفلاح والأرض، يتم بموجبه التعامل وتبادل المنفعة بينهما، ويرقى جحود الأرض وحبسها لغلتها «إذ لم تعد توفر لقمة الطعام» إلى درجة النكوث بالعهد وهو خيانة للأمانة، وهو غدر لا محالة، كما يذكر الراوي. فالفلاحون لم يختاروا النزوح إلى المدينة بمحض إرادتهم، بل إنهم فعلوا ذلك فقط «لأن الأرض قد خانتهم». وهكذا فقد لاقوا الخيانة حيث كانوا ينتظرون الوفاء ورغد العيش، وعانوا الشظف والبؤس بدل الرخاء والترف. وكما سنرى لاحقا، فإن مشاهد الفاقة تتخلل كامل الرواية، إذ تتردد باستمرار الإشارات إلى الخيانة التي اقترفها من عقدوا معه ميثاقا للإخلاص والوفاء، لتخيم بظلالها وتشيع مزيدا من صور الغدر والخداع . على أن

العيش الأفضل المنشود في المدن والحواضر يظل يراوغ هؤلاء الفلاحين النازحين، فلا يتحقق لهم بسبب انعدام الفرص وغياب الخبرات والمهارات الضرورية الكفيلة بتمكينهم من تحصيل وسائل عيشهم في أوساط تشتد فيها المزاحمة وتتصاعد بلا هوادة. فقد كان معظمهم يكسبون معاشات زهيدة من عملهم اليدوي. وكما هو منتظر، فإن وضعيتهم الصعبة جعلتهم شديدي الوعي بالمظالم الاجتماعية الشائعة في محيطهم وبالفوارق بين الأغنياء والفقراء. وفي المقطع الذي استشهدنا به سابقا، يتحدث البطل عن نشأة انخراطه في النشاط السياسي:

«لو أخذت كل سكان مدينتنا لوجدتهم فلاحين حفاة قطنوا الناصرية بعد أن خانتهم الأرض، ولم يكن بينهم من يطيق تناول وجبة طعام واحدة في اليوم لذا أعتقد أن اندفاعنا بدأ من هنا، من وعينا الطبقي بالمسألة ...».

إن الفوارق بين الأغنياء والفقراء، وهذه اللامساواة الاجتماعية قد أثارت شعورا طاغيا بالنقمة وجد تعبيرا له في الانتفاضات العديدة منذ بداية القرن العشرين، والتي حدثت في الجنوب وجعلته يشتهر كمهد للثورة. وقد تفجرت هذه الانتفاضات ضد الأنظمة المتعاقبة بدءا من سلطات الاستعمار البريطاني ثم النظام الملكي الذي حلت محل الملكية.

إن الشباب هم أكثر الشرائح والفئات تقبلا للأفكار الثورية، ويأتي الطلاب في الطليعة بصورة خاصة، وهو واقع استغلته المنظمات السياسية التي تتركز جهودها عادة على تنظيمهم وجلبهم إلى صفوفها.

بيد أنه من الجدير بالملاحظة أن التفسير القائل - على وجاهته - بأن التذمر والسخط المفرخين للمقاومة جميعها ظواهر ناجمة عن الجور الاجتماعي، فإن حماس كريم (الناصري) وانخراطه في النضال من أجل قضية شعبه، يعودان، على مستوى أعمق، إلى ما هو أهم من مجرد "وعيه الطبقي" وإحساسه بالمهانة المعنوية إزاء القهر الذي يطحن شعبه . ففي حوار مع أحد رفاق سجنه، نجد كريم يتذكر «لقد كنت أعاني وأبحث دائما، أقرأ الكتب وأساهم في المظاهرات والتنظيمات وأشرب الخمور وأحب وأرتاد دور الزنا دون انقطاع، أردت أن أكون على صلة ساخنة بالحياة وأتجدد معها...».

ويتضح من هذا المقطع أن انخراط كريم في قضية شعبه لا يعدو أن يكون قناعا لسعيه من أجل هوية تحقق له ذاته. وبعبارة أخرى، فإن انتصاره لقضية شعبه إنما هو لخدمة نفسه، وهو وسيلة من بين وسائل أخرى (شرب الخمر، ارتياد المواخير) من أجل غاية ليست سوى تحقيق الذات. والسياق نفسه يبين أنه كان عليه (كريم) أن يذكر انخراطه في قضية شعبه بالذهنية نفسها التي يتحدث بها عن تعوده على شرب الخمر وتردده على دور البغاء(فلا يكون لقضية الشعب أفضلية على ذلك). وهكذا فعندما زج بكريم في السجن من أجل نشاطه السياسي والتزامه بقضية شعبه وبمبادئه، فإنه وقع في الامتحان وعلى القارئ ألا يفاجأ بنتيجة ذلك الامتحان.

وتمضي الرواية في الجزء الأكبر منها بتوصيف وقائعي للأشهر السبعة التي قضاها كريم بأحد معتقلات مدينة الناصرية، مسقط رأسه. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السجن كوسيلة لقمع التمرد وإحباط أي تهديد لسلطة النظام الحاكم، هو أمر شائع بالعراق. فقد لجأت الأنظمة المتعاقبة إلى السجن أو التهديد بالسجن للمعارضين السياسيين بدرجات متفاوتة من النجاح.

ولا بد من القول بأن عددا من مراكز الاعتقال الشهيرة، بأوضاعها الرهيبة وأساليب العنف التي تمارس فيها ضد الموقوفين، قد وقع تخصيصها للسجناء السياسيين من قبل أنظمة متعاقبة. ونحن نلتقي بالبطل وهو يغادر أحد هذه السجون.

وهنا نطالع وصفا للحالة الذهنية للبطل برواية المفرد الغائب في بداية الرواية :

«تنفس كريم الناصري هواء الشارع بعد اختناق عريض، سبعة أشهر جائرة طوقته بدقائقها ورعبها، وهرست منه الدم والعظم والأعصاب».

إن التأثير المؤلم لتجربة السجن يبرز من خلال التعبير عن التناقض بين تنفس هواء الشارع العليل... ويرمز إلى الحرية، والاختناق العريض. فالحرية "هواء الشارع" تبعث الحياة، تنعش وتنقذ الكيان في مقابلة مع غياب الحرية والسجن الخانق الذي يهدد الحياة؛ بل والقاتل أيضا بما هو موجع ليس للبدن فقط وإنما للنفس كذلك. إن استعمال صفة "جائرة" لنعت الشهور السبعة التي أمضاها بالسجن يراد منها وصف حال البطل كضحية للجور (الطغيان، العسف، الظلم)، وتضعه في خانة أوسع لأناس يتعرضون لمعاناة أقسى ألوان الجور، وتشمل هذه الفئة من الناس أولئك الفلاحين الذين سقطوا ضحية جور الإقطاعيين ونظام الحكم الذي يسندهم ويحميهم. فسجن كريم إذن مجرد حلقة في سلسلة من الجور لا تنقطع.

إن تواصل هذا الجور يتم التأكيد عليه تلميحا بالإشارة إلى أن بناية السجن، التي اعتقل فيها كريم ورفاقه، كانت في السابق اصطبلا لخيول الشرطة تنطلق منها عساكر الخيالة لإخماد حركات التمرد العشائرية؛ وذلك قبل استبدالها بوسائل النقل الحديثة، والتي يجب أن

تقرأ، في هذا السياق باعتبارها وسائل قمع حديثة. وإن احتفاظ البناية بوظيفتها الأساسية، أولا، لإيواء مطايا الشرطة التي كانت مهمتها السيطرة على انتفاضات العشائر، ثم كمركز اعتقال يتم فيه حبس وإخضاع أولئك المتمردين العشائريين، يرمز إلى استمرار هذا الجور دون انقطاع. فوضع الضحية هذا في سلسلة طويلة من ضحايا ذلك الجور، وكونه في طليعة أولئك الذين يكافحون من أجل وضع حد لهذه الحالة (الجائرة)، هو الذي يجعل من سجن كريم وتضحيته أمرا مشرفا ونبيلا.

على أن التمعن الدقيق يلقي بظلال الشك حول استحقاق البطل لمثل هذه المكانة. فمن خلال محاوراته مع رفاقه في السجن ومن خلال مناجاته الداخلية، يحصل القارئ على بعض الشذرات المضيئة والكاشفة للأفكار الباطنية للبطل؛ والتي تبرهن على أهميتها بالنسبة لصياغة تقييم واقعي لمزاعم البطل المعلنة بكونه يمثل جزءا من تقليد عريق في مقاومة الاضطهاد. ففي مونولوجاته الداخلية نقرأ الآتي:

(أثناء فترة السجن شعرت برغبة في ملامسة يد أسيل عمران (وأسيل عمران امرأة كان يحبها وكانت علاقته بها متلصصة ولو أنها أفلاطونية للغاية قبل ذهابه إلى السجن) والتنزه معها على شاطئ الفرات في غربي المدينة، رغبة عميقة في إحياء واحدة من تلك الأماسي التي اغتالها الاعتقال).

من المسلم به أن السجن قد يكون مؤلما وأن يشعر سجناء كثيرون بالتمزق والضياع، ويعانون من الإحساس بالعجز وفقدان السيطرة على مصائرهم. وكثيرا ما يراودهم الحنين إلى أيام الحرية، ولحظات الأمان والهدوء التي أمضوها وهم محاطون بدفء الأصدقاء والأحباء. بيد أن

هذا المقطع (كما هو شأن مقاطع أخرى عديدة في الرواية) يتميز بخلوه من أي أثر أو إشارة للسبب الذي سجن من أجله البطل، فكريم يفتقد صديقته ولكنه لا يفتقد رفاقه الذين يواصلون النضال خارج السجن. وهو يشعر برغبة جامحة في إحياء واحدة من تلك الأماسي الحافلة بالأنس واللهو، ولكننا لا نعثر على أية رغبة مشابهة في الانضمام مجددا إلى النشاطات الثورية، بل إن استعمال الفعل "اغتال" للإشارة إلى أماسي اللهو التي لم يعد بمقدوره الاستمتاع بها بسبب الاعتقال هو استعمال ساخر، لأنه إذا كان صحيحا أن الاعتقال، على سبيل المجاز، "يغتال" أماسي الحبور والأنس بما أنه يضع حدا لها ويجعلها غير ممكنة، فإن قدرة السجن على "الاغتيال" تظل حقيقية بالمعنى الحرفي للكلمة: فالسجون العراقية هي الأماكن التي يتعرض فيها المعارضون السياسيون بعد القبض عليهم، للاستجواب والتعذيب والاغتيال في الكثير من الحالات؛ وذلك بصورة تكاد تكون روتينية.وإن التحسر، كما يفعل كريم، على "أماسي المرح والأنس التي اغتيلت" وليس على الرفاق الذين جرت تصفيتهم بالاغتيال، إنما يعني التقليل من شأن أولئك الرفاق الذين سقطوا ومن تضحيتهم، وهو أمر يثير تساؤلات جدية حول شرعية دعواه الضمنية بأن يكون وريثا لتقاليدهم النضالية، ودون شك، حول دوافع وأسباب انخراطه في القضية من الأساس. وهناك تأكيد آخر لهذا نعثر عليه في مونولوج آخر يندب فيه البطل ضياع "طموحه السياسي"، فليس من السائد أو الشائع أن يكون السجن عائقا أمام التغيير الثوري، ولكن الشائع أنه يكبت طموحاته "السياسية"؛ وبعبارة أخرى يكبح حظوظه في تأمين موقع أو منصب بالسلطة في نظام جديد.

إن الدراسة الأكثر تمعنا وعمقا في الرواية لكفيلة بإعطاء وزن أكبر للحجة القائلة بأن انخراط كريم في قضية شعبه إنما هو من أجل خدمة أغراضه الشخصية؛ بل هو سلوك انتهازي. ويدرك كريم بأن الكثير من الشك يحوم حول الطريقة التي يتصرف بها داخل السجن:

«ورجولتي أمام اختبار كبير، وإن مجرد نقطة ضعف أبديها كفيلة بأن تجعلني ذليلا حتى لحظة موتي».

ويجب فهم هذا المقطع والبطل يعبر عن اعتزامه رفض الهزيمة بفعل تجربة السجن، كما عن رفضه للتخاذل وتصميمه على البقاء وفيا للقضية التي حبس من أجلها. وفضلا عن ذلك، فإن المسألة أخذت بعدا شخصيا بعيد المدى، "فرجولته" ذاتها أصبحت موضع رهان. وهو أمر يوازي، في إطار عرف عراقي سائد، شرفه ونزاهته، ولكن هذا الكلام عن الإصرار لا يلبث أن يفسح المجال للارتياب والانهزامية:

«لن أغير العالم ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب، فلماذا أضطهد هكذا؟ ماذا لو أطلقوا سراحي الآن؟ هل سأحمل السلاح ضدهم؟ إن أول عمل أقوم به هو الذهاب إلى أقرب حانة لأسكر حتى الموت».

ومرة أخرى فإن هذا الإعلان لا ينبغي أن يصدر كمفاجأة كاملة، فحبس كريم على يد أجهزة السلطة يستند على اعتقادها بأنه متورط في نشاط ثوري "تخريبي" يلحق الضرر بأمن واستمرار النظام، وأن إطلاق سراحه من شأنه تعريض أمن النظام للخطر ما دام سيعود إلى سابق نشاطه الثوري المعادي للحكومة، غير أن "كريم"، كما بات من الواضح باطراد، ليس ثوريا، وبالنسبة إليه فإن المسألة برمتها لا تعدو أن تكون مجرد "طموح سياسي" أصيب بالخيبة والإحباط بفعل النظام، أو مجرد مسعى وراء أغراض شخصية. وقد أصبح مقتنعا أكثر

فأكثر بأنه ما دامت المؤامرة قد كشفت وتم اعتقال المتآمرين وسجنهم، فإن كل شيء قد ضاع ولم يعد لديه ما يفعله سوى إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتخليص نفسه من هذه الوضعية. ويؤكد كريم أنه بمجرد إطلاق سراحه لن يحمل السلاح ضد النظام، ولكنه سيتبع سبلا أخرى لتحقيق أغراضه، وأن المسألة مسألة وقت فقط قبل أن يدلي بما عقد عليه العزم للسلطات. فشرفه ونزاهته هما الآن في الميزان وأمام رهان حقيقي...

ولتبرير تنصله من ماضيه، فإن كريم يذكر عجزه وقلة حيلته لإحداث التغيير. فإصراره حينئذ وتماديه في محاولاته من أجل التغيير سوف تكون بلا جدوى وجنونية، وهو عندما يشاهد شركاءه ورفاق سجنه يغادرون المعتقل الواحد تلو الآخر، وقد أذعنوا لمطالب السلطة، فإن كريم يصبح مقتنعا تماما بوجاهة قراره. ويبلغ شعوره بالندم والانهزامية إلى حد التصريح "باستعداده لفعل أي شيء مقابل إطلاق سراحه". وبعد بضعة أيام من تسريح عدد من رفاقه، يعود كريم للتأكيد قائلا: «لم يعد هناك ما يهمني أكثر من تسوية المسألة بأية طريقة». وهو ما يبادر إلى القيام به فعلا، إذ يعترف لمستجوبيه بتورطه في هذا التنظيم السياسي الخارج عن القانون، ويكشف عن هويات أعضاء المنظمة الآخرين المجهولين بالنسبة لأجهزة السلطة، ويوافق على نشر بيان بإحدى الصحف يتبرأ فيه من السجن.

لا تقتصر هذه الانهزامية على كريم، بل إنها في الواقع حال كل واحد من رفاقه السجناء؛ ومن بينهم حامد الشعلان وهو مدرس متقاعد سبق له الوقوع في متاعب نتيجة انشغاله بالسياسة مما جعله عرضة للاعتقال كلما بدرت حركة نقمة واحتجاج. وقد نشط الشعلان في الماضي في معارضة سياسة الحكومة، وكان علمانيا يؤمن "بمطلقية العلم"، ولكنه الآن مسلم تقي يؤدي فرائضه وواجباته الدينية بصرامة. وبالرغم من ندرة التفاصيل حول تجارب هذا

السياسي العلماني السابق، فإن هناك تلميحا ضمنيا بأن الشعلان، شأنه شأن كريم، كان عليه أن يصارع الطموحات السياسية المحيطة، والتي ملأته خوفا وقلقا ويأسا. وتبرز انهزامية الشعلان في تنكره لمعتقداته وولاءاته السابقة، وحبس نفسه في عالم يسوده الأمان والنظام. وهو ينصح كريم بألاّ يُنصت «إلى النداءات اللقيطة التي تسمعها أو تقرأها».

وتشير "النداءات" إلى محاولات مختلف الأحزاب والتنظيمات السياسية الرامية إلى كسب التأييد الشعبي لنشاطاتها المناهضة للحكومة. ويصف الشعلان هذه الجماعات المعارضة التي انتمى إليها في يوم ما ب" اللقيطة". وكلمة لقيط تعني ابن الزنا، "الذي ولد خارج مؤسسة الزواج". وهو لفظ يستعمل هنا بصورة مجازية لوصف الطبيعة غير الشرعية لهذه الجماعات المعارضة بمذاهبها وتوجهاتها العقائدية. وعدم شرعيتها ينبع من عدة عوامل، أولها أن جذورها الفكرية متأتية أصلا وفي معظمها من الغرب، وهي لذلك تعاني الاستلاب ولا تتناسب مع المجتمع العراقي وحاجاته، وثانيها أنها ما دامت غربية في أصولها، فإنها بالتالي تهدف إلى خدمة مصالح الغرب وضارة بالمصالح العراقية.

أما ثالثها -وهو أهم مصدر لعدم شرعية مذاهب هذه الجماعات - فيتمثل في كونها متناقضة مع العقيدة الإسلامية بحكم مرجعياتها الغربية أو الموحى بها من الغرب، حيث إن الإسلام يظل هو السلطة التي تمنح أو تمنع الشرعية لأي جماعة أو حزب بحسب درجة اعتناق أو رفض تلك الجماعة أو الحزب لتعاليم الإسلام وأحكامه. وهكذا فإن هذه التنظيمات في نظر الشعلان لا تعدو أن تكون طفيلية في أحسن الأحوال وشريرة في أسوئها . وهو يصف تخليه عن انتماءاته السياسية

والفكرية السابقة واعتناقه الإسلام بأنه "عودة للصواب" وهذا يعني أن انضماماته وقناعاته الإيديولوجية الماضية ترقى إلى درجة الخبل والجنون؛ وهي لوثة تطهر منها الآن . ويسعى الشعلان باستهجانه واستنكاره لانتمائه التنظيمي والعقائدي السابق إلى عقلنة وتبرير خيانته لرفاقه القدامى. وحيث تم إثبات وتأكيد عدم شرعية هذه التنظيمات واستلابها وعدم ملاءمتها للقيم والتقاليد العراقية، كإضرارها بالمصالح العراقية وتناقضها مع العقيدة الإسلامية، فإن إنكاره وتنصله منها يصبح إذن أمرا مفهوما، وهو لا يبلغ حد الخيانة ولا يسيء إليه بالتشويه أو يمس من استقامته ونزاهته، بل على العكس من ذلك، فهو مصدر فخر واعتزاز بالنسبة إليه إذ بعد أن كان في ضلال وجد سبيله إلى الهدى من جديد باعتناق الإسلام والعيش في إيمان وتقوى.

ومن رفاق كريم في السجن نجد حسون السلمان الذي تحول من مناضل سياسي وعلماني إلى مسلم ورع. فقد كان السلمان في فترة ما رئيسا لكريم في المنظمة السرية التي انتمى كلاهما إليها. وشارك الاثنان في النشاطات المناهضة للسلطة ، ومن خلال الملاحظات القليلة المتناثرة التي يبديها كريم حوله، يستطيع القارئ أن يدرك أن السلمان كان فيما مضى ذا طبيعة مرحة؛ ولو أنه كان في الوقت ذاته موبوءا "بجرثومة القلق"؛ وأنه مثل كريم كان دائم البحث عن هوية. وقد كان تأثير السجن على سلمان مؤلما بشكل خاص. فمع اقتراب نهاية الاعتقال، ذبل فيه المرح وصار شاحبا بدرجة مخيفة، إن ذبول مرحه يرمز إلى موت روحه المعنوية، فقد كان للسجن تأثير تخريبي مدمر للنفس والوجدان.

وعلى نقيض الشعلان، فإن حسون السلمان يحمل نفسه تبعة الانهزامية، ففي محاورة داخل السجن مع كريم يراجعان فيها حياتهما، يتذمر حسون قائلا: «لقد شوهنا الشك والفشل». والتشويه لا بد أن يؤخذ هنا على سبيل المجاز. ومدلولات الفعل العربي "شوه" تعني بالأساس شخصا أو شيئا من الأشياء تحول من حالة جمال، جسماني أو معنوي، إلى حالة من القبح والذمامة. وفي سياقنا هذا، فإن تحول حسون الذي حصل بفعل الشك والاضطهاد إنما جاء من كونه شجاعا ومصمما، وهو ضروري لحالة يصف فيها نفسه بأنه "جبان، متردد، زائد"، وفي لحظة من التخاذل التام يخاطب كريم قائلا:

«أتنتظر أن أكلمك عن البطولة؟ أين البطولة هنا؟ كيف أعبر عن وضعنا التافه؟ أتنتظر أن أنفخ صدري وألقي كلمة عريضة عن الجماهير والشمس والمستقبل؛ وأصب الأفيون على رؤوس المنصتين كما كنت أفعل من قبل؟».

إن هذه هي حالة التشوه المشار إليها آنفا. وهي حالة يبحث من خلالها حسون عن أي أثر للبطولة في أعماق نفسه ولدى الآخرين، ولكنه لا يجد شيئا من ذلك، ومن خلالها تبدو له خطبه المحرضة والكاريزمية، من ثنايا الشك، خالية من أية قيمة حقيقية، بل مجرد أفيون في تأثيرها على الجماهير، ويعبر هذا المقطع أيضا عن ذروة التحول / التشوه لدى حسون. فهو إعلان عن هزيمته. وبداية من هذه النقطة فصاعدا، يقتفي حسون أثر حميد الشعلان ويلجأ إلى الدين. وإذ يتأمل في الوضعية الجديدة لرفاقه القدامى، يخاطبه كريم قائلا:

«لقد استطعت أن تنتمي إلى الدين واحتميت به كما احتمى به حامد الشعلان من قبلك. وأنت الآن تستطيع التحرك قاتلا جرثومة

القلق في داخلك؛ والتي نخرت رأسك من قبل، من يتصور حسون السلمان هكذا؟ بلا رياح ولا أعاصير بل أدعية وصلوات تمام كدرويش متنسك؟!». إن تشبيه حسون بدرويش متنسك يدل على أن هذا التحول يرقى إلى التأرجح من النقيض إلى النقيض، من حياة حافلة بالنشاط السياسي المناهض للنظام، مع ما يعانيه ذلك من مخاطر قد تنجر عن مثل هذا النشاط، إلى عيش شبيه بعيش متزهد بما ينطوي عليه من سلبية مطلقة وانسحاب من مشاغل الدنيا.

وكإشارة إلى خضوعه الكامل، فإن حسون يؤدي فريضة الحج إلى مكة المكرمة كما هو مفروض على كل مسلم. وعلى إثر عودته من الحج، يكتب إلى كريم، صديقه القديم: «قبل يومين، عدنا من حج بيت الله الحرام أنا والعم حامد الشعلان ... فعاد إلى صدورنا الأمان بعد خوف وازداد إيماننا وقوي بعد ضلال».

وأول ما تجدر ملاحظته بخصوص هذه الرسالة أن حسون يؤدي فريضة الحج كرمز لتخليه عن معتقداته وولاءاته وذنوبه السابقة، ليس لوحده، ولكنه مرفوقا بأحد زملاء السجن السابقين حامد الشعلان. وهذا يوفر لنا دلالة على أن الانهزامية ليست حالة معزولة مقتصرة على فرد، ولكنها تحدث على صعيد جماعي، وهي تنفذ وتتسرب بين صفوف ومراتب التنظيم.

وهناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة أيضا حول الرسالة، وهي استخدام حسون لكلمة ضلال للإشارة إلى معتقداته وانتماءاته السابقة. وفي معناها العام فإن كلمة ضلال (المشتقة من الثلاثي ض ل ل) تدل على فقدان المرء لطريقه. ولكن "الضلال" كلفظ هو أيضا مدلول قرآني ذو معان عديدة. ففي القرآن، كثيرا ما يقابل بلفظ آخر ذي دلالة وهو الهدى...

ومن بين العديد من توارد هذين اللفظين في القرآن فإن الاستشهاد التالي سوف يساعد على بيان معانيهما بوضوح. ذلك أن مفهوم الهدى يتعلق بوحي الله إلى رسله وأنبيائه. فالله يخاطب آدم وزوجه إذ يطردهما من الجنة لوقوعهما في غواية الشيطان، فيقول:

«اهبطا منها بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى».

في هذه الآية، تشير كلمة الهدى إلى الوحي الذي سوف ينزل إلى الإنسان فيما بعد، وهو ما جاء به الإسلام، آخر الرسالات التي بشر بها النبي محمد صلى الله عليه وسلم. إن اتباع ما جاء به الوحي سوف يقي الإنسان من الضلال والانحراف ويضمن له الخلاص، وإن استعمال مصطلح الضلال في ارتباط بتورط حسون سابقا في السياسة العلمانية يساعد على استحضار صورة آدم، والهبوط والخطيئة الأولى. وإن تبرؤ حسون من تلك الورطة وأداءه لمناسك الحج يرقى عندئذ إلى درجة التكفير والتوبة.

كما ترد كلمة ضلال في موضع آخر بالقرآن وتفرض مزيدا من المقارنة:

«هو الذي بعث في الأميين (عرب شبه الجزيرة) **رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويطهرهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين».**

استعمال "ضلال" للدلالة على الحال السابقة لحسون تتيح لنا المقارنة بين تلك الحال والوضع الذي كان عليه عرب ما قبل الإسلام، والذين يصورهم القرآن باستمرار بالمعمهين في الغنى والجهل.ففي الجاهلية(فترة ما قبل الإسلام) كانوا يعبدون الأوثان و يمارسون عيشا

خليعا، منغمسين في سلوك مدمر للذات؛ فكانوا في ضلال مبين. ومن هذه الحالة، جاء وحي الله لإنقاذهم ورفعهم إلى منزلة أعلى كحاملين لرسالة إلهية. ولكي يفعلوا ذلك كان عليهم التخلي عن عقائدهم من الشرك والطقوس الوثنية واطراح ولاءاتهم السابقة. وبمثل ذلك، فإن تخلي حسون عن معتقداته الماضية وقطعه مع انتماءاته السابقة لا يرقيان إلى حد الفعل الخياني أو عدم الوفاء؛ بل إلى البراءة من الضلال والفوز بهدى الله، وهو عمل يقابله جزاء رباني، وهو بالتالي أمر شرعي نقي ومشرف تمام. وهناك نقطة ثالثة لا بد من الإشارة إليها في الرسالة وهي أن حسون يوقع باسم الحاج حسون كما يذكر حامد الشعلان باسم الحاج حامد.

إن بحث حسون عن هوية، وهو بحث محفوف بالمخاطر، والذي أوقعه في دروب سياسية عمياء هو الآن على وشك النهاية. "فباعتناق الإسلام"، وتأدية فريضة الحج، يفوز بلقب تشريفي هو الحاج كما هو شأن كل مسلم يحج إلى بيت الله الحرام. وعلى مستوى رمزي، فإن حصوله على لقب حاج يرقى إلى درجة اكتسابه لهوية كانت تفلت منه في عالم السياسة.

وبعكس حسون السلمان وحامد الشعلان، فإن "كريم" الشخصية الأساسية في الرواية، يغادر السجن دون أن يكون قادرا على تسوية الصراع في داخله مسكونا بهزيمته وخيانته.

وفي هذه اللحظة الزمنية، يصبح من المهم الالتفات إلى عنوان الرواية "**الوشم**". وكلمة الوشم ذات معان كثيرة فهي من ناحية يمكن أن تشير إلى عادة شائعة بين النساء العراقيات ذوات الأصول الريفية واللواتي يرسمن خطوطا هندسية على أجسامهن من قبيل الزينة.

واستعمال الوشم في هذه الحالة هو مجرد دلالة على الخلفية الريفية ولا يحتمل أي مفهوم سلبي خاص. على أن هناك دلالة أخرى للوشم باعتباره إشارة أشد مميزاتها وقعا أنه لايمحي وأنه ثابت على الدوام؛ ويحمل دلالات على أنه وصمة ورمز لفعل شنيع وسقوط وعمل لا يغتفر. وبهذا المعنى فإنه شبيه "بالحرف القرمزي" في رواية ناثنيال هوثورن الشهيرة. إلا أنه باعتباره (أي الوشم) يصنع في مجتمع الريف العراقي من السخام، بلونه الأسود، فإن ذلك يضاعف من دلالاته السلبية؛ إذ أن السواد هو قرين الشر والأذى والخبث. وبالإضافة إلى ذلك، فإن كلمة "وشم" ترتبط وثيق الارتباط بلفظ آخر هو "الوصم"، وهما مقترنان من حيث اللفظ ومن حيث المعنى. فمن الجانب اللفظي (صوتيا) يصدران عن الاشتقاق من جذر ثلاثي: و ش م، ثم وصم من حيث يتطابق الجذران الأولان في كليهما، وكذلك الأمر في الجذرين الثالثين، ويرتبط الجذران الأوسطان أيضا من حيث إنهما حرفان حلقيان ساكنان. أما من جهة المعنى فإن الكلمتين وثيقتا الارتباط، ففعل وصم يعني أهان وعير وشان وشوه اسم شخص ما أو شرفه، أما الاسم وصمة ولاسيما في العبارة الدارجة "وصمة عار" فهي تعني العلامة على العيب ولطخة وشائبة أو نقيصة في سجية وطبع أحد الناس. وإن المشابهة الوثيقة لفظا ومعنى لكلمة وشم مع الكلمة الأكثر شيوعا لتساعد على تأكيد ودعم الدلالات السلبية للأولى وتوسيع مدى ما تحمله من معان.

إن عنوان الرواية "الوشم" هو تلميح إلى انهزامية "كريم" وانهياره تحت ضغط السلطة الحاكمة، واعترافه بضلوعه وتورطه في تنظيم سري

مناهض للحكومة، وكشفه لهويات أصحابه المتآمرين/الثوريين، ونشره في الصحافة لبيان يتبرأ فيه من رفاقه القدامى والتخلي عن أية صلة له بهم قد تسيء إليهم. إن كل هذه الأشياء يمكن أن ترقى إلى وشم مجازي غير قابل للمحو، بل هو دائم وثابت وسوف يعذبه ما بقي على قيد الحياة. وقد يكون كريم غادر السجن دون ضرر بدني ولكن "صوت انكسار حاد يتكسر في أعماقه".

وفي مسقط رأسه يبحث بلا جدوى عن ذلك الدفء الذي شعر به في الماضي نحو المدينة وأهلها، وبدلا عن ذلك فإن حرّ الاغتراب قد لفحه وسمع صوتا داخليا يناديه حتى يحمل رفاته ويرحل. إن تأثير السقوط على "كريم" تأثير روحي ونفساني بالأساس، فهو يغادر السجن على أمل أن يجد الصفاء والعلاقة الحميمة والانتماء إلى مجتمعه، ولكنه الآن يعاني الاستلاب والغربة. إن استعمال كلمة رفات (أي بقايا جثمان إنسان متوفى) وهو يقصد نفسه بذلك، إنما يعني أنه يعتبر نفسه ميتا.

وهو إذ يواجه وضعا يجد نفسه فيه غريبا في مجتمعه يؤرقه شبح هزيمته، يقرر "كريم" أن يذهب إلى منفى اختياري وينتقل إلى بغداد يحدوه الأمل وراحة البال، غير أن الأمان المنشود يظل يروغ منه في العاصمة.

ولعله من المفيد التذكير، عند هذه النقطة، بأن كريما وهو في السجن، قد حذر نفسه من أن رجولته وشرفه ونزاهته كانت موضع رهان؛ وأن «مجرد نقطة ضعف أبديها كفيلة بأن تجعلني ذليلا حتى لحظة موتي». وبالنسبة لكريم، فإن السجن كان اختبارا فشل فيه بشكل بائس واستمر شبح هزيمته يطارده في مقره الجديد، بغداد. وعلى

خلاف رفاقه الآخرين الذين نجحوا في تبرير انهزاميتهم، فلم يكن لدى "كريم" أية أوهام حول حقيقة هزيمته وهو يقر الآن بأنه "مرتد فاشل"، بيد أن اعترافه هذا لا يقوده إلى إعادة تقييم لنقاط القوة والضعف لديه، ولا يحفزه على القيام بعمل بناء من شأنه أن يفتديه ويمنحه السلام؛ ولكنه على العكس من ذلك، وكشأن أي موقف انهزامي، يبحث عن ملجأ له في معاقرة الخمر: «فالصحو عذابي والندم ما زال يقتص مني ويلسع حاضري.لذا قررت أن لا أصحو أبدا وهذا الرأس سيظل مخدرا حتى النفس الأخير».

وتركز انشغال كريم في بغداد على اتباع سبل أخرى كفيلة بتعويضه عن فشله السياسي، ورغم سعيه إلى ربط علاقات بالنساء، فإنه يظل ضجرا ومترددا. وينبع هذا الملل من ارتيابه الكامن والذي مؤداه بأن مثل هذه العلاقات قد لا تعوضه عن الخوف من فشله السياسي، ومن قلقه وحيرته بأنه لو تورط في هذه العلاقات فإنه سيكون عرضة "لعثرة أخرى" ربما تكون مهلكة واختباراً آخر قد يخفق فيه أيضا. ولم يلبث أن أصبح على علاقة عاطفية بمريم، وهي امرأة تزامله في العمل، ومتزوجة ولكنها تعاشر رجلا آخر. ومن الغريب حقا أنها برغم كونها تعيش وضعا مشوشا إلى حد بعيد، فإن "كريم" يميل إلى تنزيهها ويأمل في أن تفضي علاقته الأفلاطونية بها -والبعيدة المدى- إلى تطهيره من الرجس. فاستعمال كلمة رجس في هذا السياق له دلالة فائقة. ويورد اللغويون التقليديون جملة من المعاني لهذه الكلمة، وأكثرها تداولا وشيوعا هو أن تطلق على القذارة سواء لوصف شيء أو فعل، وهي كلمة تعبر عن أمر مكروه، لكن أكثر معانيها رواجا تحمل بصفة خاصة إيحاءات دينية. ففي الذكر القرآني،

تدل كلمة رجس على فعل محظور شرعا (حرام) وفعل معيب (مكروه)، وهو الفعل الذي يعد ارتكابه بمثابة عدم الإيمان بالله (كفر)؛ وهو فعل ينجر عنه غضب الله والعذاب لمقترفه. ومن بين المواضع التي ورد فيها هذا اللفظ في القرآن بما يتضمنه من الدلالات المعبر عنها، نجد هذه الآية الموجهة إلى نساء الرسول: **«يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا»**.

وترد مرة أخرى في آية يحذر فيها الله المؤمنين من ارتكاب المعاصي التي يقرر أنها منبوذة: **«يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأزلام والأنصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون»**، وفي العربية الحديثة، يثير استعمال لفظ الرجس بصورة شبه تامة، دلالاته الدينية. فسقوط "كريم" وخيانته للقضية والرفاق ترقى إلى مستوى الرجس، وهو شائن، مكروه وحرام وسيؤدي بصاحبه إلى الخسران في الآخرة. وبعبارة أخرى، فإن ما يجعل سقوطه على هذا القدر الذي لايطاق هو أنه لا يثير استهجان الناس فقط؛ وإنما نقمة الرب وينجر عنه الشقاء والوبال ليس في هذه الحياة الدنيا فحسب وإنما في الآخرة أيضا. وهكذا فإن علاقته الأفلاطونية المتطورة بمريم يمكن النظر إليها كسعي من جانبه لتطهير نفسه من الرجس عبر إنكاره اللذة الحسية في تعامله معها. إنه نوع من التوبة والتكفير عن الذنب. إن صداقته لمريم تتحول إلى عداء وكراهية نحوها عندما تستسلم له: «تريد أن تدنس عواطفي وتذلها وتنهيها في مضاجعة رخيصة نسرقها من زوجها والزمن والناس». وفي غمرة فورة غضبه، فإن سلوك الخيانة لدى مريم (بالنسبة لزوجها) يعكس خيانته هو للحزب الذي انتمى إليه. وما تعرضه مريم يبلغ ويماثل إعادة تعبير عن جحوده وغدره هو شخصيا. فانفجار غضبه موجه إذن إلى نفسه وإلى مريم على حد سواء.

وليست مريم وحدها هي التي تذكر "كريم" بماضيه الملوث. ففي أحد المواخير التي يذهب إليها يصف المومس التي قبلت مضاجعته بضمير الغائب فيقول: «كانت بدينة كبقرة يتدلى على ظهرها شعر طويل منقع بزيت رخيص وعلى عنقها المكتنز قافلة من الوشم... وجلست بجانبه كاشفة عن فخدين مطرزين بالوشم». وكما هو واضح من هذا المقطع، فالمومس وصفت بألفاظ غايتها إثارة الاشمئزاز والقرف. فمظهرها الخارجي الذميم يمثل تجسيدا لبشاعة روحها من الداخل، فالوشم عندما ينقش على جسد المرأة كوسيلة للتجميل والزينة لا يحمل أي دلالات سلبية في العادة، ولكنه يكتسب في هذا السياق إيحاءات سلبية للغاية. يصبح امتداداً لجسدها (وهو قبيح هكذا أيضا) وبصورة خاصة، فإن الوشم في هذا المقام يصبح رمزا خارجيا للبشاعة والفظاعة.

إن اختيار كلمة "الوشم" عنوانا للرواية التي يمثل "كريم الناصري" أهم شخصية فيها، ويمثل سقوطه موضوعها الرئيسي، وهي الكلمة التي ترد في نص الرواية لوصف المومس على وجه الخصوص؛ إن هذا الاختيار إنما يومئ بوضوح إلى مقارنة ضمنية بين كريم والمومس. فوشمها هو البغاء كما يرمز إليه الوشم الذي لايمحي عن جسدها، أما وشمه فهو الخناء الذي يمارسه إزاء القضية والرفاق، وتعبر عنه رمزيا تلك الألفاظ التي يخطها على قصاصة من الورق (يتنصل فيها من انتماءاته ويتنكر لرفاقه)؛ والتي ينشرها بإحدى الصحف: «إنني كريم الناصري أعلن براءتي من... وسأكون مخلصا لـ.... ».

إن الإشارة الضمنية ترمي إلى القول إن هناك تماثلا بين هذه التعابير المكتوبة بالحبر التي صدرت بالجريدة والنقوش السخامية

على جسد العاهرة. وهكذا يتحد "كريم" مع المومس في تقاسيم الخزي والعار، المرتكبة على نفس الدرجة من العيب والشناعة والديمومة.

إن القرف الذي يشعر به "كريم" عندما يقترب من العاهرة (وهو شعور بلغ من القسوة مما جعله يمتنع عن مضاجعتها بل إنه يبصق ويغادر المكان) هو نفس القرف الذي يخالجه عندما يتأمل فعله الشائن . فهو عندما يبصق يعبر عن احتقاره لنفسه مثلما عن تقززه من المومس. على أن هناك شخصية أخرى أقل أهمية، وهي يسرى توفيق، تقدم لنا مثلا آخر عن انهزامية "كريم" وميله إلى الهروب من المواجهة. فيسرى فتاة بغدادية جميلة يطاردها كريم بلا هوادة ويعرض عليها الزواج. ورغم وتمنعها في البداية، فإنها لم تلبث أن أخذت تدريجيا تستجيب لإغراءاته. ولكنها عندما تختبر نواياه بدعوته إلى طلب يدها من أهلها، فإنه يجبن ويتراجع زاعما أنه لا يريدها أن تربط حياتها «بشريد مثلي مرمي على السواحل كالخشبة التي تقذفها الأمواج من بقايا السفن الفارغة؟!».

غير أن هذا التشرد هو في جانب منه من فعله هو شخصيا ويعزى إلى موقفه الانهزامي وخاصة ميله للهروب من المواجهة. وحالما يقطع علاقته بيسرى، يقرر مغادرة العراق والذهاب إلى الكويت «للعيش أو الموت هناك، لا فرق».

ولعله لا يوجد شيء يمثل انهزامية "كريم" أكثر من نزوعه إلى الفرار من المواجهة. و هذا النزوع يصبح ميزة بارزة في ثنايا الرواية، فهو أولا يهرب من مواجهة السلطة بالموافقة دون قيد أو شرط على مطالبها لضمان إطلاق سراحه من السجن؛ وهو ثانيا يهرب من

مسقط رأسه مدينة الناصرية وينتقل إلى بغداد فرارا من محاسبة الناس له؛ وهو ثالثا سيتفادى في بغداد مرارة الواقع بالإدمان على معاقرة الخمرة والبقاء مخدرا على الدوام؛ ورابعا عندما تتحداه يسرى توفيق حتى يبرهن عن صدق نواياه تجاهها، فإنه يهرب من هذه المواجهة الرمزية دون تقديم تفسير مقنع، وهو أخيرا يهرب من العراق إلى الكويت.

وتشتد روح الانهزامية بسيل غامر من صور الوحشة والموت تتخلل الرواية.وتتعلق إحدى هذه الصور بكريم وهو يعمل صحفيا في بغداد. فهو إذ يجهد نفسه في إنهاء مقال حتى يتوافق مع موعد إغلاق مواد الجريدة قبيل الطبع، فإن كريما يوصف على لسان الراوي في صيغة المفرد الغائب: «ويدور بين الكلمات باحثا عن مبتغاه بينها فيجدها جميعها مخصية عاجزة عن الإنجاب»، وأول مايلاحظ في هذا المقطع هو كلمة مبتغاه، فهي في ظاهر الأمر، تعني الفكرة الصائبة اللازمة لإنهاء المقال، ولكنها على مستوى أعمق من ذلك، تحمل تلميحا إلى بحثه عن هوية وتعبير عن الذات، وهو البحث الذي قاده إلى التورط في النشاط السياسي، وهكذا تصبح وسيلة الكتابة بديلا عن وسيلة السياسة، ومثل سعيه وراء هوية سياسية، فإن البحث "بين الكلمات" في الكتابة ينتهي أيضا بالفشل والخيبة ومرارة الإحباط. ووصف الكلمات بالخصي والعقم يكشف بجلاء عن ركود الذهن لدى "كريم"، ويساعد على التفكير والتأمل في ما آل إليه أمره، فكريم هو المخصي والعقيم في نهاية المطاف.

إن صورة كريم هذه وهو مقحل مجدب وعاجز عن الإنجاب يتردد صداها في صورة أخرى. فهو إذ يؤنب أصدقاءه ورفاقه القدامى

مكسب مادي يذكر، بل إنه انتهى، خلافا لذلك، شخصا مهملا، عاجزا وخائبا يعاني الإحباط والقنوط.

على أن هناك صورة أخرى توحي بالعقم والموت في علاقة بنهر الفرات، إذ نجد "كريم" وهو يتذكر نزهة قام بها، ذات مساء، رفقة صديقته أسيل عمران بمدينة الناصرية، مسقط رأسه، نجده يقول: «كان الفرات راقدا أمام عيوننا كأفعى ضخمة قتيلة تتلوى من "الموحية" وحتى "المنتزه" الجديد الذي أنشأته بلدية المدينة».

ونهر الفرات يقترن تقليديا بالخصب والرخاء، وعلى امتداد آلاف السنين كانت مياهه تحصر ويستفاد منها في ري السهول الشاسعة في بلاد ما بين النهرين، وتثمر محاصيل يقتات منها السكان وتشكل عماد رزقهم وعيشهم. فهو رمز فائق "للخير" (الرفاهة والازدهار) وفي التراث الثقافي العراقي، تمثل الأفعى رمزا للشر (السوء والخيانة والغدر)، ومن ثم فإن صورة الفرات كأفعى تتلوى إنما تعبر عن شح النهر وتوقفه عن منح الحياة والرزق وإشاعته للموت والعقم (والعقم هو أحد التجليات الكبرى للشر في بيئة تعتمد أساسا على خصوبة الأرض من أجل استمرار بقائها ذاته).

إن ما تشير إليه هذه الصورة أنه بقدر ما يتعلق الأمر بجنوب العراق، فإن الفرات لم يعد كما كان في الماضي مصدرا للعيش وقوام الأود. فالدلالات التي توحي بها الأفعى، والفرات في صورة الأفعى، تشير ضمنيا إلى أن النهر، شأنه شأن الأرض، قد خان الفلاحين وغدر بهم، وانقلب عليهم ومنع عنهم الرزق الذي هو قوام حياتهم وهو بالتالي متورط بالمثل في اقتلاعهم ونزوحهم، وفي عيشة المنفى القهري بما يعنيه كل ذلك من شقاء وبؤس.

قضايا إنسانية أشمل كالأمل والإيمان والحرية والأوضاع الإنسانية والمآزق الأخلاقية المؤثرة في صنع الاختيارات. وإن ذلك لمما يساعد على امتداد تفسير وفهم ما أحدثته هذه الرواية من معالجات نقدية على امتداد الوطن العربي؛ مما جعلها أكثر الروايات العراقية تناولا بالتحليل والنقاش.

هوامش

1 - نشر المقال في مجلة "فصلية دراسات عربية"، المجلد 19- ع د 4 خريف 1997، والتي تصدرها جمعية خريجي الجامعات الأمريكية العرب ومعهد الدراسات العربية في أمريكا.

Hussein Kadhim (FALSE HEROES; A STUDY OF ABD AL - RAHMAN MAJID AL- RUBAY'I'S NOVEL AL "THE TATTOO").

Arab Studies Quarterly-Volume 19, Number 4 Foll 1997,

(A publication of the Association of Arab-American University Graduates and the Institute of Arab Studies).

2 - أستاذ الأدب العربي في كلية "دارث ماوث" الأمريكية.

3 - كاتب ومترجم تونسي.

وتبدأ ... رواية الوشم

-1-

تنفس كريم الناصري هواء الشارع بعد اختناق عريض. سبعة شهور جائرة طوقته بدقائقها و رعبها، وهرست منه الدم والعظم والأعصاب.

خرج كريم الناصري سالما، طويلا ومبتسما، يتفقد الأصدقاء ويرد التحية على الآخرين ويستقبل تهنئتهم بمناسبة إطلاق السراح. ولكن في داخله كان هناك شيء قد نسف. وهذا الإطار الاعتيادي الوقور ما هو إلا قناع لإخفاء البقايا وتغطية التدمير الذي لا يرمم.

وعندما يستعرض أشياء هذه المدينة، أناسها، أبنيتها، أزقتها، مقاهيها، لا يجد تلك الحرارة الأولى التي كانت تشده إليها فتلفحه حمى الاغتراب و يدعوه صوت من الأعماق لأن يحمل رفاقه ويقلع لعل رأسه اللائب تحتضنه وسادة أمان.

وعندما وضع جسده في القطار الصاعد إلى بغداد قال له حسون السلمان:

- أتمنى أن تصحو يا كريم وأن تعود إلينا بأقرب وقت.

- ولماذا أعود؟ كيف نطيق إظهار وجوهنا الصفيقة للناس؟

- أنت تتكلم وكأنك المذنب الوحيد؟

- على أية حال إن السفر يمنحني فرصة البدء.

ورفع حسون عينيه المطرقتين إلى وجه صاحبه فتنفس عطر صداقة حقيقية دفعت بكريم الناصري لأن يبكي بعد أن استحوذ التحجر طويلا.

(لقد انتهت المسألة بطريقة باردة ورديئة).

في عالم المهرجين والأشباه حاول كريم الناصري أن يجد له مكانا وأن يستعيد يقينه الضائع، ولكنه لم يتعامل بأمان مع الأشياء التي واجهته في هذه المدينة التي مازالت تلعق جراحها وتنزع عن جسدها ثياب الحداد، وتعثرت خطواته في دروب العتمة و النضوب.

(إنني أدور في طرق لا يعرفني فيها أحد، و أجلس في مقاه منزوية. أقرأ صحفا قديمة و أتابع برامج التليفزيون. و مازلت أبحث بإلحاح عن عمل يبدد وقع السأم في داخلي، أحمل الطابوق، أغسل الأواني، أكنس الشوارع، أوزع الشاي في مقاه رخيصة وألتحف الخمول والنسيان. وفي أواخر الليل يستقبلني فندق رخيص يقع في نهاية زقاق يتفرع من شارع الرشيد، ويقطنه الجنود والمرضى الذين جاؤوا للتطبب في بغداد، وبعض الموظفين المفصولين الذين وفدوا بحثا عن عمل بعد ان قذفتهم المعتقلات عراة من وظائفهم وشعاراتهم التي هرجوا لها طويلا، وأنا بينهم ياحسون رجل خسر وظيفته والتزامه ومدينته. خسر حاضره بكل حرارته وآماله الكبار، وأعتاش على المبلغ الضئيل الذي تسعفني به عائلتي في نهاية كل شهر.

ولكن الفرج جاءني متباطئا كمواكب الملائكة فقد عينت في قسم الإعلام بإحدى الشركات الأهلية التي تربطني بأحد موظفيها صداقة قديمة، عينت بمرتب أعتقده مرضيا وبه أستطيع مواصلة الأكل والشرب وقراءة الكتب ومعاشرة البغايا. فالصحو عذابي والندم ما زال يقتص مني ويلسع حاضري . لذا قررت أن لا أصحو أبدا، وهذا الرأس سيظل مخدرا حتى النفس الأخير).

تقع غرفة كريم الناصري في الشركة في نهاية ممر طويل، لها نافذة واحدة كبيرة تطل على شارع خلفي ساكن، فيه دكان صغير وبيوت ثلاثة لا تفتح أبوابها إلا نادرا.

في هذه الغرفة منضدتان احتل إحداهما بينما احتلت الأخرى مريم عبد الله، وهي كاتبة طابعة سمراء صغيرة الحجم، لها عينان داكنتان تحف بهما حاشية سوداء من الأهداب الفاتنة الطويلة، وخصرها ضامر كنبتة عذبها الجفاف. في يدها اليسرى خاتم ذهبي يضع مثيله رجل آخر هناك هو زوجها الذي تزوجها قبل أعوام و أولدها بنتين.

جسدي ملقى على الأرض في هذا المعتقل الموحش الذي كان يوما اصطبلا لخيول الشرطة الخيالية يوم كانت الناصرية في بداية نشوئها وكان التمرد يكثر في العشائر المحيطة بالمدينة والتي يتعذر الوصول إليها عن طريق وسائط النقل الاعتيادية.

الخدر يستحوذ على جسدي ويلح عليه بوخزات سريعة متلاحقة كعشرات الإبر، ولم يعد للحلم فضاء رحيب. فالجسد مدان وها هو يلوك الأيام الكسولة مفكرا بأشيائه التي افتقدها .. الكتب والشوارع، أبي وأسيل عمران والنزهات الصيفية على شاطئ الفرات. ولكن وجوه الرجال المهيأة لوليمة غامضة تسد الدرب أمامي فأبلع ريقي ويتكسر في أعماقي صوت انكسار حاد.

أنقلب على جانبي وأستخرج الرواية الوحيدة التي تسللت إلى المعتقل خلسة، وأشرع بقراءة سطور منها، أبصق و أرميها ثم انهض شاتما.

صوتي وحيد لن ينفذ إلى أذن، والمصابيح انطفأت جميعها، وقلبي في رفيفة اليومي لم يترك أثرا على هذه الوجوه التي يصفعها ثقل المصاب. الأيام تمر متوترة كما مرت أيام العربدة والحب والتسكع والبحث عن حلم يهدئ حمى الرؤوس، ولم يعد أمام المتقاعدين مجال لكي يستعرضوا أوسمة ماضيهم الصدئة.

-لقد تزوجني صغيرة يا كريم وبيني وبينه تقف عشرون سنة، لم أعرفه إلا في ليلة عرسي، كانت صفقة عقدها والدي ليداري بها خسارته، بكيت بادئ الأمر ولكنني تقبلت الأمر وارتضيته ثم وجدت سعادتي مع وصال وهند.

لعل في وجود مجيد عمران بجانبي بعض الأمان لي، هذا الموظف الأنيق الذي كان ضنينا حتى في توزيع التحيات على الآخرين، وإن فعل ذلك فببرود لا يفعله إلا أباطرة الفرس الذين انحدر عنهم.

كان الجميع يحادثونه ثم يمضون، أما بالنسبة لي فهو يعني أشياء أخرى أكبر من التحية والاعتقال وبرودة الليل، وكم مرة أمعنت النظر في عينيه البراقتين، هذا البريق الفارسي اللذيذ الذي يشع من بين أهداب طويلة سوداء كجباه الزنوج، فأنتشي وكأنني أشرب هديل عيني أخته أسيل الشاحبة التي عرفتها يوم كنت طائرا هائما كغيوم الصيف المسافرة.

- وما الذي أستطيع أن أفعله لك يا مريم؟

(قل ما شئت عني يا حسون، سطّر أحكامك واكتب استنتاجاتك. ولكن علي أن أمد لها يدي، يجب أن أتخطى نكبتي بكم..

هناك خبر آخر أزفه إليك: لقد عينت محررا في إحدى الصحف إضافة إلى عملي في الشركة، ولكنني أكتب باسم مستعار أغيره بين وقت وآخر، لا أريد أن أظهر اسمي الملطخ إلى النور، إنه بحاجة إلى فترة تطهير قد تطول وقد تقصر).

- هل أحببت يوما يا كريم؟

فوقف السؤال في صدره . ولما طال صمته أردفت:

- هل تجد بعض الإحراج في سؤالي؟

- أبدا، ولكنني أفكر بصياغة الرد عليه.

- حسنا.

- حكايتي ليس فيها ما يثير يا مريم. المهم أنني طويتها وعبرت، كانت من مدينتي ولكن السياسة فرقتنا ومضى كل منا في سبيله.

- وهل كانت جميلة.

- ليست أجمل منك على أية حال.

وابتسمت من رده ثم تنفست بعمق ورمت جذعها إلى الوراء، ونط النهدان من سجنهما.

(هل أستطيع أن أبدأ مع مريم؟ إنني أسأل نفسي هذا السؤال. ولكنني أعود وأبعد الحكاية كلها عن رأسي فهي علاقة محكوم عليها بالإعدام منذ البداية.. أوه يا حسون إنني أهذي. من أين لي النقاء؟ ومن أين لي قناعة حامد الشعلان؟ واندفاع رياض قاسم؟)

- هل تتوقعين أن يحبك إنسان يوما؟

- وما الجدوى؟

- هذه مسألة أخرى ولكنني أريدك أن تردي على سؤالي أولا.

- لا.

- ولماذا هذه اللاً القاطعة؟

- في مثل هذا الوضع وهذه السن لا بد وأن يكون مجنونا.

- ولكنك أهل للحب؟

وضحكت بنعومة:

- قد يكون تصورك في غير مكانه.

ثم زفرت براحة فقد وجدت موضوعا لحديثها القادم مع عشيقها البدين قحطان.

- 2 -

الناصرية مـدينتنا الصغيرة الـهادئة التي قصدها آباؤنا يومـا بعد أن رموا مناجلهم وفـؤوسهم بحثا عن عمل جـديد يلقي في أفواه أبنائهم الجائعة لقمة لم تعد الأرض تمنحها لهم.

الناصرية تحـتمي بالفرات وترمي إليـه بشموعـها ونذورها من أجل أن يكون الغد أكثر أمانا.

مدينتنـا اللديغة التي عجـزت عن الشكوى وأخرس فـمهـا المرتزقة واللصـوص في العهـد الملكي المنقـرض ، أخذت تفـتح فـمهـا وتتنفس وتطلق أغانيها الدفينة.

سمـاء الجنوب ناصـعة وزرقـة لاهبة تطليـها في هذا اليـوم الصيفي الـلاهب، وكان المدعوون يتقاطـرون إلى مـبنى المدرسة "المركـزية" لحضـور الاحتـفال الـذي سيـجري إحـياء لذكـرى مناسبة وطنية عظيمة.

وكنت أحد المـدعوين للمسـاهمة في هذا الحـفل، ولما كنت أكره الكلمـات المنفعلة جـاءت كلمتي بطيـئة فاترة اسـتقـبلها الحـاضرون بـغيـر اكـتـراث وانشغلـوا بمسح العـرق المتفـصـد على جباههم وأعناقهم.

- كانت كلمتك حقيقية جدا

والتفت إلى صاحبة الصوت المادح، فاستقبلتنا نفحة من عطر عينيها الواسعتين، وتنفستها ثم أرخيت العنان لنظراتي لتجول بعض الوقت في محراب هذا الوجه اللذيذ قبل أن أرد عليها:

- شكرا.

- ثم انتقلت إلى مكان آخر لأتأمل لوحة معلقة على الجدار فتبعتني.

- ما رأيك فيها؟

- مهزوزة.

وظلت حائرة أمام تعليقي الغائم بعض الوقت ثم قالت:

- إنها لي.

- هل أنت رسامة؟

وضحكت وهي ترد:

- يقولون.

ثم سألتها:

- هل أنت من هذه المدينة؟

وهزت رأسها بالإيجاب وأضافت:

- ومعلمة في هذه المدرسة.

- ولكنني لم أرك من قبل؟

- أما أنا فقد رأيتك مرارا وعرفتك.. كريم الناصري أليس كذلك؟ يا له من اسم كبير رأيته في الصحف والمجلات عشرات المرات.

وشعرت بالزهو من هذا المديح الساخن.

- وأنت ما اسمك؟

- أسيل عمران.

- فرصة سعيدة.

- سيكون لقائي بك جزءا حلوا من ذكرياتي .

ورسمت بسمة هادئة على شفتي وأنا أعلق على قولها:

- ولكنني أكره أن أكون جزءا من ذكريات إنسان.

وتساءلت مستغربة:

- ولماذا؟

- لأنني أريد أن أكون له كل شيء.

ثم انفلتت خارجا وتركتها واقفة تهرسها الحيرة.

المساء يهبط على رأس كريم كآلاف الأحمال، والمحررون قد غادروا الجريدة ولم يتخلف أحد غيره.

وقف أمامه عامل المطبعة للمرة الرابعة قائلا:

- لم يبق لدينا مجال، ألم تنته من كتابة مقالك؟

ويجيبه من بين غيمة من الدخان والحيرة:

- تعال بعد خمس دقائق.

ويدور بين الكلمات باحثا عن مبتغاه بينها فيجدها جميعها مخصية عاجزة عن الإنجاب. وقال للعامل:

- املأ الفراغ بموضوع آخر.

(النور والمطلق، والصحو والكمال، والشبع والرضى، مسائل عديدة بحثنا عنها ونحن نتظاهر ونجتمع ونتشرد ونعتقل، ولكن الجواب بقي غامضا: ألست معي يا حسون؟

لماذا تتجاوب معي هذا التجاوب الرائق؟ لماذا تشكو دائما أمامي وتقدم لي تقريرا عن تحركها اليومي بعد خروجها من الدائرة؟

مرات كثيرة أجيب وأقول: إن هذا يحدث بسبب جوعها إلى كلمة إعجاب حقيقية تنطلق من شفتي شاب يقاربها في السن والأحلام، وأحس في أحايين أخرى ببطلان تفسيري هذا وأصدر حكمي ضد هذه المشاعر اللابطة، وأتهم نفسي بالجرم لأنني ارتضيت دخول عالم هذه المرأة الكبلة لأرضي نزوة عصفت بي - تجربة ؟! يا لها من كلمة مسكرة نمني أنفسنا بها بعد أن يخط الفشل سطوره علينا).

- لقد أوقعته في شباكي يا قحطان .

ونهض من فوقها لاهثا، وأشعل سيجارة وقد احمرت عيناه تعبا.

- أنت لا تملين من الرجال أيتها القحبة.

وتجمع ثوبها حول فخذيها المشهرين.

-أجد لذة في إذلالهم انتقاما من مأساتي.

-وهل ستصلحين الأمور بهذا؟

وتهز كتفيها وهي تقول:

-لست أدري.

(إن أهم ما يشغلني الآن هو: هل بالإمكان أن تكون المرأة تعويضا كاملا عن الخيبة السياسية؟ وهل تكفي لأن تكون ضمادا لكل الجروح؟ ولكن أية امرأة تقدم ذلك؟ إنني خائف يا حسون من عثرة أخرى لن أنهض بعدها، ألا تعتقد بأننا قد نلنا كفايتنا من النكران والإجحاف؟

ما أشقاني وأنا أؤدي دوري المتعب في هذه المسرحية؟!)

- هل يخامرك شعور بالذنب؟

- ولماذا؟

- لأنني لست طليقة.

- ومن منا الطليق يا مريم؟

أشياء كثيرة مرت بي وانتهت عاجلة، ورغم مرور السنين والأحداث بقي جوعي واقفا لإقامة علاقة دامية مع الأشياء، علاقة تلوي العظام وتهرس الأعصاب كلها.

في السياسة أردت ذلك ولكن تساقطهم الذليل أمامي جعلني أبصق كبرياء، وأحتقر لحظاتي التي عشتها معهم باندفاع أصيل.

جسدي ممدد الآن في هذا المعتقل المحتشد مع هؤلاء الرجال الذين لايتجانسون مطلقا في ثرثرتهم وشجاراتهم اليومية التافهة، ولست أدري كيف انضووا تحت يافطة سياسية واحدة.

جو خانق تفوح منه رائحة الأنفاس وعرق الأجساد التي لم تعرف الاستحمام منذ شهور، الأرض مليئة بالفضلات والبصاق، ودخان السجائر لا يجد فجوة ينفذ منها، وأبسط شيء أتوقعه هو أن أجد قرادة ملتصقة بعنقي عندما أفتح عيني بعد إغفاءة سريعة، أو أجد قملة تسرح على ياقة قميصي بعد أن ارتوت من دمي. لكن نكتة واحدة يطلقها علوان الحلاق بسذاجته المحبوبة كانت تخفف وقع الأحداث في النفس.

- بعض الناس ينهض صباحا وعلى ذراعه ترقد فتاة حريرية الشعر أما أنا فأنهض وأجد على ذراعي قدم كريم الكبيرة. أي نصيب أسود قادني معكم؟

فتردد أرجاء القاعة صدى قهقهات قاتمة تلفظها الحناجر بتثاقل مرير، وتتوالى النكات والتعليقات لتكون مهدءا لهذه الأجساد الكسيرة.

أنا أدرك جيدا بأن رفضي عريق، متمرد أصيل لا آبه بشيء، لذا كانت حياتي سلسلة متصلة من المتاعب والانتكاسات وكنت أخرج دائما بلا موعظة.

ويوم عرفت أسيل عمران، أردت أن أكون معها بكل ثقلي، وتوحدنا في مجرى واحد، فرحة واحدة وعبوس واحد. وكان الحزب عالمنا. وأوغلت بعيدا، تسرب التعب إلى خطواتي، وكان الأمان في حواراتنا الناعمة أنا وأسيل التي كنا نسرقها من التنظيم والزمن، فينطرح رأسي على وسادة من الحرير والموسيقى.

وها أنا اليوم معهم أمام مصير واحد، ورجولتي أمام اختبار كبير، وان مجرد نقطة ضعف أبديها كفيلة بأن تجعلني ذليلا حتى لحظة موتي.

وكانت أسيل تزور أخاها بين فترة و أخرى حيث تتطلع إلي من بعيد فأقرأ سطور الاندحار والهزيمة في عينيها المقتولتين.

مدد جابر الموصلي ساقيه وتثاءب بصوت عال، ثم ثرثر عن مغامرة عاطفية خاضها في الصباح.

-امرأة رائعة تساوي كل هذه الجريدة ومحرريها الوصوليين. وعندما لم يشاركه كريم بالإنصات شتمه وقال:

- ستظل خياليا حتى يوم يبعثون.

التفت صوب مجيد عمران الذي كان يدخن باحتراق وهو مستلق بجانبي وقد برز وجهه النحيف الذي امتدت إليه يد الصفرة والذبول.

- مجيد.

ودارت عيناه إلى ناحيتي وهو يردد:

- نعم.

- هل أحببت؟

- أواه، أنت بطر يا كريم، أي حب هنا ونحن اسرى هذه الجدران؟

وأردفت عليه:

- لا تنقبض هكذا، في لحظات اليأس دعنا نتحدث عن أشيائنا الجميلة.

- وهل الحب منها.

- وأين تضعه إذن؟

وهز رأسه قائلا:

- لا أدري ؟

ثم استند على مرفقه وأصبح وجهه محاذيا لوجهي وقال:

- المسألة لا تستحق التغطية فالتي أريدها والدها معنا الآن .

- ومن هو؟

- حامد الشعلان.

وكان حامد الشعلان معلما مسنا تقاعد عن الوظيفة والسياسة معا، ولكن ماضيه السياسي بقي يتعقبه فجيء به معنا على الرغم من أنه معتقل يعاني من ربو وروماتيزيوم مزمنين.

وها هو يمضي وقته بين الصلاة والنوم، ويوجه أحيانا بعض الملاحظات والإرشادات عندما يرى شيئا ليس في مكانه.

وأردف مجيد قائلا:

- أنت تعجبني يا كريم لأنك غير متوتر وطبيعي جدا على عكس الكثيرين هنا.

- لا أحملك مسؤولية شيء بالمرة فأنا المتسرع الذي جاء إلى الشرك بقدميه.

- لقد تطورت الأمور بسرعة وتعقدت حياتنا معا.

- 3 -

(زفرت مريم وهي تتناول الإضبارة من يدي وقالت:

- إن شركتنا مدينة بمبلغ كبير لمؤسسة التليفزيون ثمنا لإعلاناتنا الأخيرة.

وعقبت:

- نحن في عصر الإعلان يا سيدتي.

كان وجهها محتقنا، وخمنت، لابد أن زوجها قد أمضى فترة طويلة في مطارحتها الهوى، وشعرت بالقرف عندما تصورت هذا، امرأتي التي أريدها تؤخذ كل مساء، وصدرها الشهي داسته سنابك الخيل عشرات المرات.

ورفعت عيني عنها، لم أعد أقوى على مواصلة النظر إليها. إنها مستلبة، احتلوها قبلي، وعاثوا فيها.

حدثتني عن أخيها الذي يعمل في السلك الدبلوماسي، وعن والدها الذي مات منتحرا، وزوجها الذي يعاني من آلام المفاصل وحدثتها عن القلق والهزيمة وأسيل عمران التي جاءني منك نبأ زواجها. إنني أتساءل الآن : كيف سارت الأمور يا حسون بهذه السرعة؟ وكيف حسمت وفق هذا اللا تناسق الغريب؟ كيف تم هذا؟).

- اسمعي هذه الحكاية يا مريم.

- تفضل.

- البارحة كنت جالسا في سيارة التاكسي جوار السائق وقد تعدى الليل منتصفه، كنت ضجرا إلى حد لا يوصف فأردت أن أقوم بعمل يبدد ضجري، أتدرين ماذا فعلت؟

ورفعت رأسها إليه مستفهمة فأردف:

- شهرت سكيني وقربتها من حنجرته وصرخت فيه:

- كم معك من نقود؟

وفقد السائق القابلية على النطق.

- لماذا لا تتكلم؟

ورد بصوت منهار:

ثلاثة دنانير.

ولم أستطع أن أقاوم ضحكة حادة كانت حبيسة صدري، فأطلقتها لترن في جوف الليل. ثم ابتسمت له وأنا أقول:

-إنني أمازحك، أتتصورني لصا؟

وانفجرت ضاحكا من جديد فانفرجت أساريره وهو يقول:

- لقد أرعبتني حقا.

وتساءلت مريم :

- ولماذا فعلت هذا؟

وهبط رأسه على صدره وهو يجيب:

- إنني أشرب دمي.

-لماذا لم أرك منذ أعوام يا كريم؟ أين كنت مخبأ لي؟

وانتزع رأسه من الحبل وقال:

-لو حدث هذا لما ولدت هذه المتاعب.

-أتريدني حقا؟ أم إنني بالنسبة لك مجرد مغامرة تعوض بها عن فشلك؟

- إنني أكره أن أجرب مواهبي فيك، وأبني رفاتي المتهاوي على أنقاضك، صدقيني.

- ولكن من يصلح الخطأ الأكبر؟ كل شيء مرسوم خطأ بالنسبة لنا، زواجي، اعتقالك، حبنا، فمن أين نبدأ بالتصحيح؟

- لقد أردت أن أنتشل روحي النادبة المسحوقة التي لا تعرف السلام، لست نبيا ولكنني إنسان اعتيادي لطخته الصفوف بشعاراتها وتهريجها وقادته إلى عهرها، فهدرت صحتي وشبابي، واليوم أحاول أن أجد الأمان، هذا كل شيء، ولكن كيف؟

أخذ علوان الحلاق يؤدي بعض التمارين الرياضية وصوت شهيقه وزفيره يرتفع . وفي مكان قريب منه اجتمع بعض المعتقلين في لعبة ورق يقتلون بها زمنهم الحجري. بينما أخذ مجيد عمران يقلب صفحات ملونة، وكنت مشغولا بحلاقة ذقني وعندما انتبه إلي علوان الحلاق قال:

-عندما نخرج من المعتقل سأحلق لك شعرك حلاقة مجانية تظهر كل وسامتك.

ولكن متى؟

وأردف بلا مبالاة:

-أنت وحظك.

وعند أبواب المعتقل كان الحراس يتبادلون الحديث بصوت عال يتسرب قسم منه إلى الداخل.

بعـد أن أنهيت حـلاقة ذقني نهـضت وعلقت المرآة في المسـمار الذي ثبته مجـيد عمران لتعليقهـا، ثم ركلت علوان الحلاق بقدمي وأنا أقول له:

- أعطنا الطريق، هل نحن في ناد رياضي؟

- إن جـسـمي قـد تـكلس، وأنا بحـاجـة إلى الـرياضـة مـثل حاجتي لمرأى أمي.

ومضـيت باتجاه النافـذة وتأملت السمـاء فوجدتهـا ناصعـة الزرقة على الرغم من برودة الجـو وتوقع سـقـوط المطر في مـثل هذه الأيام، وقفلت راجـعا وجلسـت جـوار مجـيد عـمران متـممـا حديثا كـنا قد بدأناه وأنا أحلق ذقني:

- لو أخـذت كل سكان مـدينتـنـا لوجـدتـهم فـلاحـين قطنوا الناصرية بعد أن خـانتهم الأرض، ولم يكن بينهم من يطيق تناول وجبـة واحدة في اليوم، لذا أعـتقد أن اندفاعـنا من هنا، من وعينا الطبـقي للمسـألة، إن جهـد والدي كـان لا يسـاوي ربع دينار في اليـوم، يحـرث الأرض، ويشق التـرع ويحـرس في الـليل، ويبـرد ويجوع ويمرض، وإن استـطعت أن أكون مـوظفا ذا دخل لا بأس به وأنعم برفـاه فردي لن يبـعدني عن انتـمائي لعـشيـرة جائـعة أكلها جفاف الأرض قبل أن تحصد ما بذرته.

وكان علوان الحلاق يستمع إلى ما أقوله فعلق بعد أن انتهيت:

- هل عدتما لمناقشة هذه النظريات الجوفاء؟ إن الواقع غير الأقوال التي تثرثران بها دائما، وهي التي قادتنا إلى هذا الفشل الذي نرضعه الآن، إن سـبب بلائنا أنتم أيهـا المثـقـفون، لماذا لاتتـركـونـنا وشـأننا وترفعون عنا وصايتكم التي لانريدها؟

ثم انصرف قبل أن يستمع إلى ردي، وهمس مجيد قائلا:

- إنه يقول الحق. مصيبتنا أننا نعرف الكلام، ونطيق التبرير وعقلنة الأمور، في أيام النصر نحن في المقدمة وفي أيام الانكسار نحن أول الفارين.

وأردت أن أغير مجرى الحديث فسألته:

- وهل يعلم حامد الشملان في رغبتك بابنته؟

وحك مجيد شعره وأجاب:

- إنه لا يعترض على شيء وقد رحب بي عندما تقلمت طالبا يدها منه، ولكنه ارتأى أن يؤجل الموضوع حتى تنهي دراستها الإعدادية هذا العام.

- ستحرر قريبا وتتزوج وسأحضر حفلة زواجك إذا كنت مطلق السراح.

وسألني بإلحاح:

- أفكر بأشياء سبق لي أن مررت بها عابرا ومن الأجدر بي أن أستعيدها وأدرسها جيدا علني أنقذ ما تبقى مني.

- إن الإصرار على التقولب هو الداء الذي سيوجعنا دوما أما إذا كان لنا رأس بإمكانه أن يلين إذا اقتضى الأمر فستكون الحياة أهدأ.

-لقد كنت أعاني وأبحث دائما، أقرأ الكتب، وأساهم في المظاهرات والتنظيمات، وأشرب الخمور وأحب وأرتاد دور الزنا بلا انقطاع، أردت أن أكون على صلة ساخنة بالحياة وأتجدد معها، ولكنني اكتشفت أنني كنت أخسر هذه الحياة باستمرار.

ورفع مجيد عمران سبابته في الهواء وهو يقول لي:

- أنت ذكي يا كريم وهذه مصيبتك.

(بسم الله الرحمان الرحيم

أخي الحبيب كريم الناصري

بعد التحية ومزيد الاحترام، أسأل الله تعالى أن يمن عليك وعلينا وعلى المسلمين بالصحة والعافية، وأن يجمع كلمتهم بعد تشتت ويوحدهم بعد فرقة.

أما بعد...

أزف إليك نبأ سفري إلى حج بيت الله الحرام في الشهر القادم، لألبي دعوة الله وأتبرك في بيته، وأشم رائحة نبيه الكريم، وسيكون برفقتي العم حامد الشعلان أطال الله عمره وهو يهديك تحياته ويسألني عن أخبارك باستمرار.

نسيت أن أخبرك بأن مجيد عمران قد تزوج من ابنة العم حامد وقد أمضينا أيام الزواج الأولى في البصرة، ونتمنى أن نفرح بزواجك قريبا، والسلام

أخوك حسون السلمان)

(أنت صادق النية يا حسون ووحدي الذي بقيت بلا يقين. لقد استطعت أن تنتمي إلى الدين واحتميت به كما احتمى به حامد الشعلان من قبلك. وأنت الآن تستطيع التحرك قاتلا جرثومة القلق في داخلك والتي نخرت رأسك من قبل ، من يتصور حسون السلمان كدرويش متنسك؟

لا تحدثني عن الجنة والجحيم، أرجوك افهم ما أريد أن أقولك لك على الأقل. إنني أتعذب كلما أحسست بأن بصمات زوجها مرسومة على كل جزء من جسدها وأخالها مفتوحة كالأفواه سخرية مني ومن عواطفي التي زرعتها في هذه الأرض السبخة، وكم أتمنى لو أنها

خلقت من جديد وتكون ابنة لجارنا أشاكسها أينما حلت، وأكتب لها رسائل الحب تحت نور مصابيح الطريق، أواه يا حسون، ما العمل؟).

كان الوقت ظهرا وكان كريم الناصري يتأمل وجوه بعض الفتيات المحتشدات تحت مظلة موقف الباص أمام مبنى كلية البنات. وأخذ يُجِيلُ نظراته بين وجوههن فاستقرت عند فتاة شقراء تقف وراءهن. تأمل جسدها المكتنز ووجهها وعنقها المتعالي بإباء عظيم. تأملها كلها باشتهاء ساخن، وعندما صافحته عيناها ابتسم لها فردت على بسمته، وتوهجت الدنيا من حوله ببريق هاتين العينين الأناضوليتين. وأعادت إلى ذهنه صورة هيلين بطلة طروادة مشعلة الفتنة الكبرى التي راح ضحيتها ألوف الفرسان.

وشعر بالانخذال أمام هذا الوقار المهيب الذي يحف بها ويجعل من ضحايا التاريخ وسروب السبايا نذورا رخيصة تعافها الأنظار.

هذه هي المرة الأولى التي يراها فيها، إذ أن الكثير من الوجوه التي تميز الأجساد الواقفة هنا معروفة لديه لكثرة ما جمعها الباص معه.

وعندما رمقته بنظرة قصيرة من جديد وجدت بسمته مازالت ملوحة على شفتيه فنكست نظرتها مسرعة دون أن تسقيه من نبع عينيها الصافيتين رشفة أخرى.

وعندما نزلت تبعها حتى وصلت إلى بيت انتهى بناؤه حديثا، وقبل أن تدخل التفتت إلى الوراء فصافحها هيكله الطويل الذي كان يقطع الدرب بخطوات وئيدة وعيناه عندها.

(ستختلط عليك الأسماء والحكايات، وأعلن عليك الآن أن هذه الفتاة نموذج خاص من النساء لا تجده دائما. وأنها قد فرضت وجودها علي بحدة وبنظرة واحدة. وربما أنساها بعد دقائق أو أطاردها حتى الأخير .. اضحك ياحسون، إنني أمنحك النكات بلامقابل، ألم يقل أحد المفكرين الكبار: بعد حرب خاسرة يكتب المرء الكوميديا؟).

- 4 -

(أحبابي شلون حالتكم بعدنا
شبدينا والوكت عنكم بعدنا
ان جان أنتم نسيتونا بعدنا
بذكركم كل صباح وكل مسيه)(*)

وانساح الصمت من جديد وبقي صوت محسن خليل ينزف دمه لاثبا وهو يردد هذا اللحن الريفي العميق الذي تفجره أعماق الجنوب فتصغي له أفئدة الرجال المخلفة في الخارج حكايات طويلة لا تبلى.

هتفت من أعماقي:

- هيا يا محسن هدم كل السدود وأغرقنا في طوفانك، طهرنا من رجسنا و عارنا.

وعلق مجيد عمران:

- الغناء صوت القلب الذي ينبض وبتوقفه تتوقف الحياة.

وأخذ الصوت بالنواح، وأوغل في العظام، ومضى إلى الماضي والحاضر والمستقبل، إلى الثرثرة والسكوت، إلى الحرية والاعتقال.

(*) كلمات الأغنية باللهجة العراقية وتؤدى بنوع من الغناء النائح الذي يدعى "الأبوذية".

وشعرت برغبة في ملامسة يد أسيل عمران والتنزه معها على شاطئ الفرات في غربي المدينة، رغبة عميقة في إحياء واحدة من تلك الأماسي الدفينة التي اغتالها الاعتقال.

و ترتسم أمامي واحدة من تلك المقابلات الرابضة في الدم على الدوام.

كان الفرات راقدا أمام أعيننا كأفعى ضخمة ثقيلة، يتلوى من "الموحية" وحتى "المتنزه" الجديد الذي أنشأته بلدية المدينة.

وكانت الزوارق الرياضية تنطلق مرحة من المسبح الطلابي الصيفي فأتمنى لو كنت واحدا منها أشق صدر الفرات النائم وأمضي بعيدا مع الموج.

قلت لأسيل:

- تصوري مشهدنا وأنا أتوسد كتفك الناعمة وقد احتوانا واحد من هذه الزوارق؟

- لقد رسمت عشرات الصور لهذا المكان بالذات إحياء لوقفاتنا هذه به.

- أريد أن أتوسد كتفك لا في زورق بل في فراش.

وقرصت راحة يدي وهي تهتف:

- أنت لا تخجل.

- ولم الخجل؟

- من هذه الكلمات العارية

ومررت أصابعي على خدها وتمتمت:

- إنها من وحي رواية جنسية قرأتها هذا الأسبوع، ثم أليست هذه خاتمة الرغبة المتبادلة فيما بيننا؟ أتتوقعين أن أضحك أمامي وأنظر إليك فقط؟

- اخجل قليل.

- اطردي عن رأسك خيالات الكتب فكثير من قصص الحب اللاهبة فشلت بعد الزواج لأن أحد الطرفين كان مصابا بالبرود الجنسي.

وضجر كريم الناصري من مواصلة العمل فنهض من مكانه وأشرف عليها من قمته، ثم انحنى وقرب وجهه من شعرها، وشم رائحته، ثم هم بلثمه ولكنه كبح جماح رغبته وقفل راجعا إلى مكانه.

ونهضت مريم وأخذت تدور في الغرفة ناقلة بعض الإضبارات من مكان إلى آخر وامتلأ المكان بسحرها الأنثوي الأخاذ. وهاهو الألم يطرحه كاللذيغ عندما يجد ذراعيه عاجزتين عن تطويقها وشم عنقها النحيل.

- يخيل إلي أنك تريد أن تضعني عنوانا لمغامرة؟

- لماذا لا تقتنعين بأنك الصدق وسط فوضى حياتي؟

وكانت عيناها موجهتين صوب المعاملات المكدسة أمامها دون أن ترفعهما إليه.

- البارحة أنفقت ساعة في متابعة فتاة تشبهك.

- دلني عليها وسأخطبها لك.

- لن أبدل مريم الحقيقية بمئات النسخ الزائفة.

وتوقفت عن العمل، وأسندت مرفقيها على المنضدة ثم شبكت أناملها أمام وجهها وسألته:

- وإذا اكتشفت يوما بأنني لا أستحق هذا الحب فماذا تفعل؟

- لا تنقلينا إلى هذا العالم الأسود.

- لنفترض؟

- قد أدمرك تدميرا تاما.

(كيف أصل إليها بامتلاء؟ أعتدتها، أحببتها، أطلق ما شئت من هذه التسميات ... تصور أنني أدمنت حتى رائحة جسدها التي يلفظها عند التعرق في هذه الأيام الصيفية اللاهبة؟ إن الانطلاق بعيدا يبدو وضعا مستعصيا بالنسبة لي اليوم، وإن تحركي من هذا المكان، من هذا القن اصبح مسألة محالة).

- لقد صدعت رؤوسنا بصمتك.

قذف جابر الموصلي كلماته هذه، فرد عليها كريم الناصري بصوت يائس:

- إنني جريح حقيقي يا جابر.

- هيا بنا لنسكر إذن، لقد أنهينا عملنا مبكرين هذا المساء.

- لا بأس.

وقادهما الزقاق المتفرع عن شارع الرشيد إلى بار "السولاف" في "الباب الشرقي".

***

كانت ترجمه ببريق عينيها فيتساقط كالنيزك الهاوي، دنا منها وهي واقفة تنتظر قدوم الباص وتفرض حضورها الحاد على الحاضرين فيبدون جوارها كالتماثيل الرديئة المرتصفة في معبد مهجور.

طاردها مرات منذ أن رآها في تلك الظهيرة القائظة، وحرص على ملاحقتها وهي ترتفع راية للجنس والكبرياء، في الباص والشارع، إذ لن تصمد أمامها ذكورة أي رجل،

وبمجرد أن تحط عيناه عليهـا تندفع دماؤه هادرة في شرايينه، وتود شفتاه اقتناص شفتيها وطرحها أمام الأنظار.

وجلس بجانبها، كانت تضع كتبهـا على ركبتيها، بينما يلتصق كتفه بكتفها، وكلما مضى الباص في توغله اقترب منها أكثر.

وبعـد فتـرة استلت دفـترا من بين كـتبـها، وتمكنت عـيناه من التقاط حروف اسمها المسطرة على الغلاف .. يسرى توفيق .. وردد كلمات اسمها بصلاة.

(ترى هل أستطيع بهـا أن أنقذ بقايـاي من الخطأ الجديد؟ ها هي أمامي فتاة رائعة، أصابعهـا عارية، وحدودها بكر، لماذا لا أبدأ معها من جديد بداية جادة؟ أغـتـسل بها منكم، من أسيل عمران، مـن مريم عبد الله، من العالم، من سخفي اليومي المتهور؟؟).

وعندما وصل الجابي ابتـاع تذكرتين واحتفظ بهـما في يده، أما هي فقد استلت دفتر تذاكر من حقيبتها وقطعت واحدة منه وأبقتها في يدها. فالتـقطها منهـا بدون أن ينبس بكلمة ثم مـزقها ووضـع في يدها إحدى التذكرتين اللتين ابتاعهما. وتمت التمثيلية بصمت.

وبعد لحظة من الصمت الحـائر التفت إليها، ودخلت عيناه التـائهتان في غابتي عينيها الأناضوليتين، وأوغلتا، ونسجتا ملحمة الرغبة الدفينة.

(وعندمـا ابتســمت لهـا ردت على بســمتي، ومـرت على وجـهي أنســام هذه البســمة بســحر أخـاذ، وأخذت أتطلع إلى أناملهـا الطويلة العـارية من كل خـاتم، ثم تذكـرت أنامل مـريم الصـغـيـرة السـمـراء، وتذكرت خاتم موتي الذي يندس بينها، ترى هل ماتت أسيل عمران؟ ربما ستسألني هذا السؤال يا حسون؟ إنها جزء منكم، إنها أنتم، وأدتّها معكم، واريتكم قبرا واحدا.

إنني مجزأ الآن، كل جزء مني في قذارة، وها أنا اليوم مشدود إلى هذه التناقضات المتداخلة دون أن تقودني حكمة صائبة. أشتهي أن أرتمي بعلاقة دامية مع يسرى، أن أحبها، أن أتزوجها، أن ... لا أدري ماذا؟ أوه، إنني أحترق يا حسون، تضيق بي ثيابي).

وعندما نزلت يسرى من الباص، كان وراءها متباطئا قلقا إلى أن وصلت باب دارها فالتفتت إليه وابتسمت.

- 5 -

- عش بسهولة يا كريم.

- أهذا هو الحل؟

- أتتصورني قوية أستطيع شطب كل شيء إن اقتضى الأمر؟

- ربما.

- إذن أنت مخطئ.

ثم نظرت في ساعتها وتذكرت موعدها مع قحطان واستأذنت بالخروج.

- إلى أين؟

- ابنتي مريضة وسآخذها إلى الطبيب.

كان الليل في أوله وقد فرغنا لتونا من تناول وجبة العشاء اليتيمة التي تتكون من قطع الخبز اليابسة وحفنة تمر الزهدي وبعض المعلبات.

وارتكن ثلاثة منا لغسل الأواني بينما بدأ الآخرون باحتساء الشاي فطغت قرقعة الملاعق وهي تدور داخل أقداح الشاي الزجاجية على كل لغط آخر.

وتوقفت الأيدي عندما تناهى إلينا صوت محرك سيارة دخلت إلى باحة المعتقل. ونزل منها عريف ثميم يحمل في يده رشاشة.

واستخرج من جيبه ورقة وأخذ ينادي بصوت عال بأسماء بعض المعتقلين بينهم أنا ومحسن خليل وحامد الشعلان. ثم طلب منا أن نهيئ أنفسنا ونجمع حوائجنا ليجري نقلنا إلى معتقل آخر بعد خمس دقائق.

رغم اعتدال الجو وانحسار البرودة عنه، بقي المطر متمردا على قانون الفصول ولم يرض الإذعان لأيام الصيف التي بدأت بالزحف.

وأخذ نثيث المطر يغسل وجه بغداد بمنائرها وباصاتها ونسائها المعطرات ورجالها اللاهثين. وشجع هذا النثيث كريم الناصري على ممارسة هوايته القديمة في التسكع على أرصفة الشوارع الطويلة.

وفي الوقت الذي أخذ فيه الآخرون يتقاطرون مسرعين ليحتموا من المطر تحت مظلات الدكاكين ومواقف الباصات، بقي كريم الناصري مغروسا في منتصف الشارع عائما على أجنحة نشوته.

ثم عرج إلى اليسار ودلف إلى منتزه "الكاظمية" الواسع، وأخذ يخطو في ممره الرئيسي.

كان المنتزه فارغا، وجسد كريم هو الجسد الآدمي الوحيد فيه، وهناك كلبة حمراء انطرحت تحت شجرة كالبتوس كبيرة.

اتجه صوب أحد المقاعد وخلع سترته ثم انطرح على ظهره وأعطى عينيه للسماء، غيوم راحلة، وطيور، وشمس، وأشجار مزهرة استحمت بالنور والمطر. أحس بأنه حي، وأنه يتنفس، وأغمض عينيه قليلا.

(لتمت مريم عبد الله أو فلتكن قحبة في المبغى العام، ولتندثر أسيل عمران، ولتذهب يسرى توفيق إلى الجحيم، ليكن كل شيء على عكس ما هو عليه فلن أعض يدي ندما، ولتكن أحلامي غير ممكنة.. لـ..).

(عزيزي كريم

قبل يومين عدنا من حج بيت الله الحرام أنا والعم حامد الشعلان بعد أن تبركنا في خيراته وشربنا من مائه، وتنفسنا من هوائه، فعاد إلى صدورنا الأمان بعد خوف، وازداد إيماننا وقوي بعد ضلال.

إن صحة العم الشعلان سيئة ولذلك وجدنا بعض المشقة في السفر.

لماذا لا تأتي إلينا؟ إن شوقنا إليك كبير، تعال فالمدينة لاتحمل أي حقد عليك وصدرها واسع وستضمك بين ذراعيها كما ضمت آخرين قبلك.

الحاج حامد الشعلان يهديك تحياته ومحسن خليل أطلق سراحه قبل أسبوع بعد أن انتهت محكوميته وهو الآخر مشوق لأن يراك.. والسلام.

الحاج حسون السلمان).

عندما دخلنا المعتقل الجديد وجدناه أكثر اتساعا من الأول وفيه منافذ كثيرة. واستقبلتنا وجوه لم تكن غريبة علينا، بينها وجه صديقي حسون السلمان.

-أهلا كريم.

-أهلا حسون.

وتعانقنا. تلألأت دمعة في عينيه، فربت على كتفه مهدئا. -لقد شملك الجمع أيها المحارب القديم؟

وصرخ بصوته الأبح:

-لا أعرف علتي، كلهم يسجنونني، وكل انقلاب يستهدفني ويضعني في مصاف أعدائه.

- لا تهتم، فلست البريء الوحيد هنا.

- لم تعد لي علاقة منذ سنوات، ألا يفهمون؟

- عندما يعرفون ذلك سيطلقون سراحك حتما.

- ولكن متى؟

وتجمع حولنا معتقلون آخرون وتبودلت التحيات والمعانقات، واستقر أمامي وجه رياض قاسم تلميذي الثائر الشجاع الذي قال لي:

- الوقت بطيء وثقيل يا أستاذ كريم، ولكنني أبدده بكتابة القصائد.

- أريد أن أسمع شيئا منها.

- سأكون سعيدا بذلك.

وكان يفرك يديه ببعضهما تماما كما كان يفعل عندما يقف أمامي في الصف.

ودرت بين الجميع محييا ثم أعلنت بصوت عال:

- لقد جلبنا لكم كنزا ثمينا.

و التفتت إلي الوجوه مستفهمة فتابعت:

- محسن خليل، وسيبدد وحشتكم بصوته ويجعل المعاناة أقل وطأة.

وقرأت إشراقة البشر على الوجوه الخاسرة.

نهض كريم وغادر المنتزه، وأخذ يخطو على الجسر عابرا صوب "الأعظمية" ليمر في دار جابر الموصلي ولكنه لم يجده فارتمى في الشوارع ثانية.

كانت خطواته تواصل قطع الدروب بدون أن يحدد لها وجهة ثم واتته فكرة في أن يبدد بعض الوقت في دار يعرفها.

عندما طرق الباب فتحته عجوز متشحة بالسواد وقالت:

- ليست عندنا إلا واحدة.

ودخل.

وبعد قليل جاءته الواحدة، كانت بدينة كبقرة، يتدلى على ظهرها شعر طويل منقع بزيت رخيص، وعلى عنقها المكتنز قافلة من الوشم. وكان فمها محشوا بقطعة بنان تمضغها وتتجشأ بين فترة وأخرى. جلست بجانبه كاشفة عن فخذين مطرزين بالوشم أيضا هما سلاح الإغراء لديها.

وعندما لحق بها إلى غرفتها انطرحت على الفراش ورفعت ثوبها وهي ما زالت تجتر اللبان. ولما دنا منها شعر بغثيان فظيع فهب واقفا، ثم بصق وانصرف لتستقبله الشوارع الجائعة ثانية.

وهيأ حسون السلمان فراشي بجانبه، وكانت ليلتنا الأولى في المعتقل الجديد ليلة مقفلة ليس للقمر فيها رائحة. ومن الشباك الذي ينتصب أمامي بدأت أراقب نجمتين مقرورتين تقتربان من بعضهما لقتل صقيع الأعماق.

وأخذ رياض قاسم يقرأ قصيدته بانفعال وتتحرك يداه مع كلماتها بانسجام وتعانق.

وعندما أنهى قراءته نهض حسون السلمان وأتى بمكنسة شهرها في الهواء كمن يشهر سيفا وقال بصوت يختلط فيه التهستر بالمرح:

- أنا شاعر أيضا، هيا اسمعوا قصيدتي.

فرك لحيته بيده الأخرى وانطلق قائلا:

- أنا من أكون؟

أنا حسون

أنا ملعون

أنا مسجون.

أنا ... أنا كلب ابن كلب.

ثم ألقى بالمكنسة بعيدا، وارتمى على فراشه لاهثا وكأنه قد أنهى عملا مضنيا. وأثارت كلماته الضحك في صدري المنقبض، من أين لي البسمات؟ لقد صدأ الدم في صدري، ولكنني سأضحك كثيرا ما دام حسون معي.

وأخذ حسون يمسح العرق المتفصد على جبينه الأحمر وقال بصوت لاهث:

- ماذا أفعل؟ أطفالي في مكان، وأنا هنا لا أعرف عنهم شيئا، من لهم بعدي وهم الذين لم يعتادوا على فراقي يوما واحدا؟

- 6 -

كانت مريم ترتدي قميصا برتقالي اللون تتوزع عليه زهور صفراء كبيرة، وتكتمل فتنتها بتنورة بيضاء ذات حاشية حمراء فاتحة، وكانت أكمام القميص العريضة تظهرها كواحدة من راقصات الفلامنكو الإسبانيات.

وكان كريم الناصري يتأملها بوله ولا يطيق أن يفعل شيئا آخر، فهذه العلاقة الغائمة تنفذ إلى قلبه كالنصل وتوقعه في ظلام مقفل دون أن يأمل ببصيص من الضوء.

- لقد اشتغلت كثيرا، عشر خادمات لن يطقن عمل بيتي، وفوق هذا أعمال الشركة، أطبع وأطبع حتى تورمت أصابعي، أواه إن الحياة ثقيلة لن تطاق.

وجرحته شكواها فأجاب مهدئا:

- إن متاعبك حلوة على أية حال وذات هدف وليست عقيمة باطلة مثل متاعبي.

ابق وحيدا تلعب الرياح بين ذراعيك؛ فهذا أفضل لك من الارتباطات السخيفة.

ثم تُواصل بمزيد من الانفعال:

- عش لنفسك فقط لا لشيء آخر، سافر واضحك وامش فهذا خير حل للأمور.

جلس الشيخ بجانبنا فقدمت له سيجارة، وبعد أن سحب منها نفسا تساءل:

- هل أصبحت شاعرا يا حسون؟

- الظروف فتحت موهبتي. وعندما أخرج من المعتقل سأحمل معي أربعة دواوين مخطوطة أكسد فيها على كريم الناصري ورياض قاسم.

ووجدنا في رده نكتة ضحكنا لها، وأخذ صدر الشيخ يطقطق مع قهقهاته كآنية زجاجية تسحقها الأقدام.

كان الشيخ ربعا وقصيرا وقد استحوذت على الجزء الأكبر من وجهه لحية كبيرة حولت عاديات الدهر لونها إلى أبيض. وإن حاول أن يخفي هذا اللون بالحناء الذي كانت زوجته تعجنه له بين فترة وأخرى. وعيناه تحملان طيبة حقيقية، طيبة فقيدة لم نعد نراها اليوم في وجوه الناس.

- ماأخبارك

فرد الشيخ على تساؤل حسون:

- بالي مع العجوز يا حسون، لم أعد أعرف من أمرها شيئا منذ أن منعوها من زيارتي، ولست أدري ما الذي حل بها؟ قريتنا بعيدة ولا أظنها تملك أجور المجيء وقد باعت كل الدجاجات منذ زيارتها الأخيرة ولم تبق غير بقرتنا الوحيدة، وإذا باعتها سيكون الله في عونها.

وألقى كريم بالمعاملات التي أمامه وهب واقفا، ثم اتجه صوب النافذة، وأخذ يدخن ويراقب الشارع، وبعد ذلك خلع سترته وعلقها في مسمار على الحائط.

- قد تلعنني يوما.

- نحن مظلومون ولنا عمر واحد فلماذا نحرق أيامه بالأسى؟

- ما الذي تنتظره من غريقة؟

أخرسه سؤالها ولم يجد ما يرد به، فأردفت عليه:

- هل ترتضي بي مع طفلتين؟

وعاد إلى مكانه وظل ينقر على المنضدة بسبابته، وقطع صمتها دخول الفراش.

- أستاذ كريم المدير يطلبك.

ونهض من مكانه ولفحته عيناها بنظرة تساؤل.

كان للمدير عينان جاحظتان لا تمتان إلى وجهه الضامر بصلة، أما شعره المجعد فمسرح إلى الوراء، وتبدو منه ذؤابات ناتئة تجعل هيئته مكفهرة صفراء.

وقبل أن يبدأ الكلام تهدلت شفته السفلى كاشفة عن بقية من أسنان هدمها التبغ والكبر، ثم رسم تعبير جد على وجهه وهو يقول بلهجة بعض رؤساء الدوائر الذين جاؤوا إلى مناصبهم بالوساطات:

-إن مريم عبد الله تتأخر عن الدوام باستمرار ولا تنجز الأعمال التي تسند إليها في وقتها المحدد، وفي هذا ضرر بمصلحة الشركة، كل هذا يحدث دون أن ترفع لنا تقريرا به؟

ثم زم شفتيه بعد ذلك مواصلا إظهار نفسه بمظهر المدير الحازم.

- ولكنها لم تتأخر إلا مرتين أو ثلاثا، ولم يكن هذا بطرا منها فهي معذورة إذ أنها أم ولها ابنتان، مقاومتهما للأمراض ضعيفة.

ورد المدير بانفعال وهو يضرب المنضدة بقبضته:

- ولكن قانون الشركة لا يسمح بمثل هذه المخالفات، كلنا متزوجون، وكلنا غارقون في المتاعب، ولكن هذا لا يمنعنا من التقيد بالنظام في حياتنا؟

وعندما عاد سألته مريم:

- ما الذي أراده منك المدير؟

فتح نافذة الغرفة على مصراعيها ثم أجاب:

- يريدني أن أخبره عنك كلما تأخرت عن الدوام.

ثم احتضن في رئتيه نسمة من الهواء.

-هل تسمح لي بسيجارة؟

قدم لها واحدة وأشعلها، وسقطت نظراته على قفا عنقها وقد مال شعره إلى الأمام. كان أبيض صافيا كأنه صيغ من أنفس الجواهر، وكبح جماح رغبته في لثم هذا المرمر الإلهي، وهمس لها:

_ كم أحبك.

واستمرت في التدخين بعد أن رمت رأسها إلى الوراء، وفرشت وجهها أمامه، ومرت ثوان عديدة قاوم فيها رغبته ولكن يده هبطت على كتفها، ونعمت بلدانته ونعومته، فهمهمت بصوت مبهم، ثم انسحبت وهي تردد:

-لقد بردت قهوتي.

وعاد وجهه يراقب السماء وقد بدت صافية يطرزها سرب من الطيور المهاجرة، وتذكر أنشودة محببة كان يرددها هو وأقرانه في الجنوب أيام كانوا صغارا مشاكسين كلما لمحوا سربا من الطيور المهاجرة. ثم ابتسم وهو يسترجع كلمات تلك الأنشودة التي تخبر الطائر الذي في المقدمة بأن لا يخاف والطائر الذي في المؤخرة بأن الذئب في أثره. وانتشى من استرجاع هذه الصور التي كادت أن تندثر. سألها:

- مريم، أخبريني، إذا اختفيت عن أرضك يوما وانقطعت كل أخباري، هل سيكون في هذا سعادة لك؟

سألني حسون:

- أتذكر أيامنا الأولى في العمل السياسي؟

- أوه يا حسون؟ إنني أذكر كل شيء، كنا مدفوعين بإخلاص حقيقي، أيام صافية لطخوها فيما بعد.

- ما زلت أتذكر مهمتك الأولى عندما كلفناك بلصق بعض النشرات على جدران البيوت المجاورة للنهر، ولكنك ألصقتها على جدران الحمام المواجهة للنهر مباشرة.

وانطلقنا ضاحكين فقلت:

- لقد صرخت بي عندما رأيتني أفعل ذلك: من يقرأها إذا ألصقتها هنا؟ السمك؟

وعدنا إلى الضحك من القلب ثانية.

- لقد شوهنا الشك والفشل يا كريم، وها نحن الآن كالموتى الذين ينتظرون دفنهم، انظر، تأمل، ألا يكسفك وضعنا ؟ أهذه عاقبة النضالات التي اندفعنا فيها وأضعنا من أجلها أحلى سنوات عمرنا؟

وقلت وأنا أربت على كتفيه:

- لاتبتئس إلى هذا الحد

- إنني أشبه نفسي اليوم بلقلق الكنيسة.

- وما به هذا اللقلق؟

- يقولون إنه لا دين له، ليس بالمسلم ولا بالمسيحي ولا بالصابئي، ينكرني الجميع.

- ومن أين أتيت بهذا المثل؟

- أ كبير على حسون السلمان أن يخترع مثلا؟

وانطلقنا مقهقهين ولكن بحرارة تهرس القلب. وانتابتني هجمة من السعال فنهضت من مكاني وشربت قدح ماء من الجرة الموضوعة في النافذة. وارتميت في فراشي مختنقا.

***

(أشعر يا حسون وكأنني الآن خروف موثق العنق إلى حبل طويل ولن أرد بشيء غير الثغاء .لم أعد أختار الأشياء بنفسي وافرض كلمتي برجولة كما كنت افعل في صباي مع أبناء محلتي الذين كانوا يخافونني أكثر من آبائهم ويرتجفون ذعرا كلما زجرت واحدا منهم، ولم تكن لي غير لغة اللكمات والركلات، كنت آنذاك صبيا مارقا حافي القدمين، أنفق نهارات الصيف في النهر كالفيلم أسبح وأصيد السمك، ونهارات الشتاء في اصطياد الطيور في مزارع الحنطة المحيطة بالمدينة. ويوم أعطيت راسي للكتب شربت الجبن والتخاذل، ويوم أعطيته للانتماء عرفت الخيانة والهزيمة. والأجدر بمرتد فاشل مثلي أن يخفي وجهه عن الأنظار لا أن يعرضه كبضاعة كاسدة.. إنني أتساءل هنا يا حسون: هل سيأتي يوم أترحم فيه على أيام الاعتقال وأعتبرها أكثر أيامي هدوءا؟).

- 7 -

الليل والصمت يخنقان الزقاق القديم الذي يؤدي إلى مبنى الجريدة.

وكان كريم الناصري يوغل فيه متعثرا في الحفر ومياه الغسيل، وتتهدل ربطة عنقه على صدره بينما حمل سترته على ذراعه فيبدو كواحد من السكارى المدمنين الذين تستقبلهم أزقة "الحيدرخانة" في ساعات الليل الأخيرة.

بصق على الجدار الأجرد، ودخل إلى مبنى الجريدة وأخذ مكانه دون أن يلقي التحية على الحاضرين.

سأله محمود:

-أين كنت ؟

انتزع الرباط وألقى به جانبا.

- في جهنم.

- ما بك؟

- إنني مريض.

ونهض محمود وأمسك بمعصمه وقال بتأثر:

- أنت محموم، عد إلى البيت إذا أردت وسأنجز عملك.

- لا، أريد فقط أن أتمدد قليلا وستتحسن حالتي.

-كما تريد.

ودخل جابر الموصلي وعندما رآه هتف:

-ما بك؟

- لاشيء، حمى بسيطة ستزول.

- حسنا فلدينا مشروع أنا ومحمود هذه الليلة وسنشاركك به.

وعلق محمود:

- سنأخذك إلى مكان تنسى فيه وضعك البائس، أنت بحاجة إلى الانتشال، إلى عقل مثل عقلي العظيم ليجد لك الحل.

وأكمل جابر:

- إلى ملهى الأنغام، سترى شهرزاد أميرة قلبي، ومن ثم ستكون الشقة جاهزة.

وأخرج من جيبه حزمة من المفاتيح وهزها أمام وجه كريم.

وأخذ محمود يكركر كماكنة نفذ زيتها، وكانت عينه الحولاء وصلعته السمراء اللامعة تجعلانه ملائما لهذه اللامبالاة المرحة.

***

وخرجت شهرزاد عارية تتلوى، لم تستر من جسدها إلا مواقع قليلة، وكان المسرح مضيئا والقاعة خافتة الأنوار.

-إنها أروع راقصة في العالم، لقد خلقت من أجل أن ترقص، انظر، كلي ثقة أنها سقطت من بطن أمها وهي تهز ردفيها العظيمين.

-اسكت الآن.

الملهى ممتلئ بالسكارى والمهرجين، وقد أخذ كرم ورفيقاه مكانهم في زاوية خافتة النور منه.

واستمرت شهرزاد ترقص وفق إيقاع شرقي مثير، وسجد الجميع لهذه الرغبة وارتموا في سوح الجنس وانتصبت آذانهم كحمير تنهق.

كرع جابر كأسه و قال:

-إن قلوب الجميع هنا تتحرق رغبة في طرحها على الفراش، ولكنها لن تكون إلا لنا الليلة هي ورقصها وأردافها، وسنجعل أفواه هؤلاء التافهين تسيل لعابا من أجلها، وسيمضون إلى بيوتهم ليضاجعوا نسائهم الغبيات.

أخذ محمود يهز كتفيه مجاريا إيقاع الدربك و يزدد بهيام:

- لنرقص ونسكر ولنمت بعد ذلك، إلى جهنم وبئس المصير.

- روحه سرمدية الخضرة هذا الأحول ولن تجف أبدا. واكتسح المكان طوفان الجنس وصرخات الغابة، وجرى نهر الشبق عاويا مغرقا كل ما يمر عليه، وكانت أصوات الاستغاثة الشبقة تنطلق:

- هزة أخرى.

- ألعن والديك.

- تساوين جدي وعشيرتي.

- أموت فداء لساقيك.

- ليحترق أهلي كلهم.

وكانت ترقص وتبتسم بثقة من أشعل الفتيل وأوقع الجميع تحت سطوته، ولكن اهتمامها الوحيد كان منصبا على مائدة جابر الموصلي الذي كان ينهض ويرفع كأسه إلى أعلى تحية لها كلما ابتسمت له من بعيد، ثم يهتف لنفسه:

- يعيش جابر الموصلي ساحر الراقصات.

ويردد محمود:

- يا له من مجد شريف.

ولما انتهت من أداء وصلتها تعالى لها التصفيق وتشبث بها الكثيرون ولكنها أفلتت منهم بدبلوماسية المهنة، وبعد أن استبدلت ثياب الرقص شقت طريقها صوب مائدة جابر الموصلي ورفيقه.

وأخذت مكانها لصق جابر. وكان كريم الناصري أمامها رجلا مهموما كدرا يسند وجهه إلى يده ويتأمل صدرها العاري الذي يلتمع كالأضواء.

- كريم الناصري زميلنا في الصحيفة.

و همست بدلال:

- فرصة سعيدة.

ثم مدت له يدا صغيرة ناعمة ضغطها بين أنامله مصافحا.

- إنه المحرر الفني وسيكتب مقالة عن رقصك العظيم.

- هل تريدني أن أشكره سلفا؟

- لا بأس.

- إذن سأشكره على طريقتي الخاصة.

وطلبوا لها مشروبا.

ودار المزيد من الثرثرات والتعليقات الفارغة، ودارت الرؤوس، وفرغت الكؤوس مرارا. وكان جابر الموصلي يغرس فمه في أذنها هامسا لها بحديث تقهقه له بصوت داعر بين وقت وآخر.

(الجموع لن تلتف حولي حاملة صورة وجهي المغبر، مفرقعات تنسف جمجمتي وتحيلني إلى أنقاض وحرائق، أي طموح سياسي؟ وأية قذارة هذه؟

لقد اندثرت معارك الماضي يا حسون، وها أنا أفح من سمي متمنيا لحظة سلام واحدة).

همس لها محمود:

- أتعلمين أن فخذيك قد امتلأتا جدا؟

- إنني لا أراعي قواعد الريجيم، يعجبني الشرب والأكل والضحك.

- وإذا بقيت فاتنة إلى هذا الحد سأضطر يوما لأن أطرحك على المسرح وأرفع ساقيك أمام الحاضرين؟

(وتركزت رغبتي في مضاجعتها وعجن جسدها المشبوب بعد كل الصمت الطويل الذي اتخذته حيال نداء الجسد، وهاهي الرغاب تتفجر مرة واحدة وتحتشد بقوة تشد الأعصاب).

وضحكوا كالأغبياء الفارغين، وكان كريم الشاهد الوحيد الذي يدون وقائع المشهد بحزن عميق. والتفتت إليه وكانت قبضة من شعرها الأشقر تتدلى على جبينها، فتمد أصابعها المليئة بالخواتم البراقة لتعيدها إلى صفها، وعضت على شفتيها وهي تنظر إليه.

(وتصورتها منطرحة على ظهرها مستسلمة لي).

قالت:

-إنه وسيم جدا كريمكم هذا ولكنه حزين.

وتمتم محمود :

-إنه عاشق.

-وابتسمت بانشراح:

-يا عيني عليه.

-وأردفت تخاطبه:

-هيا يا كريم اسمعنا نكتة.

وعلق جابر:

-إنه آخر من يقول النكات.

وقال محمود :

- سأروي لكم نكتة بدلا عنه.

ثم أطلق نكتة بذيئة لم يضحك لها أحد.

وحاول كريم أن ينهض ولكن قدميه كانتا مسمرتين من ثقل الكؤوس التي كرعها بحرقة.

ونهض ثانية وأمسك جابر الموصلي بيده وقال:

- انتظر ستأتي شهرزاد معنا.

(لن يتغير كريم الناصري حتى لو أصبح إمبراطور اليابان).

وعندما أصبح الليل في منتصفه كانت سيارة محمود تقلهم صوب شقة جابر الموصلي.

ولم يودعهم كريم عند الصباح إلا ورقم تليفون البنسيون الذي تسكنه شهرزاد في جيبه، ولوقت الحاجة -كما همست له وهي بين ذراعيه- .

(كان جسدها يا حسون مهتزا نابضا بدون إيقاع، وقد منحني كل مدخراته بلا أنانية أو تحفظ. وما زلت أحس حرارة بطنها وارتجاف فخذيها ومواءها وسعيرها الذي لم ينطفئ رغم دمي الغزير الذي سكبته فيها، إنها امرأة فظيعة لم تخلق لرجل واحد بل خلقت لكل الرجال. لقد تركتنا نحن الثلاثة متعبين لاهثين تتدلى ألسنتنا).

- 8 -

كنت على موعد مع أسيل عمران لحضور معرض للرسم ساهمت فيه ببعض لوحاتها. وبعد انتهاء مراسيم الافتتاح طلبت منها أن توافين في بيتي.

- لا أستطيع.

- إن غرفتي معزولة ولن يراك أحد عندما تدخلين.

وأجابت بغضب:

- وماذا تتصورني؟

- أرشديني إلى طريقة أخرى نلتقي فيها على انفراد؟ أنبقى دوما نتسكع عرضة للتعليقات؟

- قلت لك لا أستطيع.

- لا تكوني جبانة، سنجلس قليلا ونتحدث وأقرأ لك بعض كتاباتي الأخيرة، هل أنت غير واثقة مني؟

وزرعت عينيها في وجهي وهي تقول:

- حسنا، كما تريد.

ثم نكست رأسها.

كانت تلك أول مرة أجتمع فيها مع أسيل بين جدران أربعة، في غرفة موصدة الباب، على جدرانها لوحات زيتية تمثل مشاهد من الحياة

في الجنوب، وتقويم سنوي يتدلى تحت صورة ممثلة شهيرة معلق في الزاوية المواجهة للباب.

والتفتت إلى كتبي المبعثرة على الكراسي والمنضدة بإهمال فقالت:

- فوضى، فوضى.

- لا بأس ستمتد إليها يد حلوة لتنظمها يوما.

وأطرقت مبتسمة بحياء، ثم تأملت الصورة المعلقة على الجدران وقالت:

- سأهدي لك واحدة من لوحاتي لتعلقها هنا.

- عمل رائع.

ثم نزعت عباءتها وطرحتها على أحد الكراسي وهي تقول:

- إنني أخون مبادئي بهذا العمل.

فنهضت وفتحت لها الباب وأنا أقول:

- هيا أخرجي إذا كنت ترغبين في ذلك.

أخذت تفرك يديها بمسند الكرسي حائرة ثم قالت:

- سأبقى معك.

ودنوت منها وجلست جوارها. كنت حائرا أنا الآخر لا أدري كيف أبدأ؟

التفت إليها و وضعت يدي تحت حنكها و رفعت إلي وجهها فأطلت عيناها الواسعتان وتلألأ الجوهر الذي صيغتا منه، وأخذت وجهها بين يدي وأنا أتمتم:

- أتعلمين أنك جميلة جدا يا أسيل؟

ثم قبلت عينيها، وبعد ذلك أخذت شفتيها فخارت بين يدي واحتضنت رأسي باكية.

وهتفت لها:

- أسيل، هل آلمتك بشيء؟

وأخذت أمسح دموعها بأطراف أصابعي.

- ما بك؟

توقفت عن النشيج وقالت:

- لا شيء، إنني أحبك.

ثم هبت قائلة:

- لقد تأخرت.

وقفت أمام المرآة، والتقطت مشطا كان موضوعا فوق المنضدة وأخذت تسرح شعرها الطويل، فارتسم في رأسي ذلك الأمان البيتي الفقيد. وأردت أن أبقيها معي ولي فهي المتممة لتبعثري وكتبي ونزواتي.

- لماذا أنت مسرعة هكذا؟ قولي لأهلك كنت في بيت إحدى صديقاتي.

- لم أعتد الكذب عليهم.

ودنوت منها ووقفت خلفها ثم احتضنتها، واستقرت يداي على نهديها النافرين وهصرتهما، وتأوهت بتوجع أملس:

- آه، لا تؤلمني ثم دسست أنفي في شعرها، وشققت طريقا لشفتي لتحطا على قفا عنقها وعندما تمكنت من ذلك عضضتها فجفلت وهي تقول:

- أواه، دعني اذهب، لقد تأخرت.

-إياك وأن تذكري اسمه على مسمعي.

- أتريدني دائما لك وحدك فقط؟ لماذا تحرن هكذا وتغار بصبيانية؟

- كيف لا أغار وقد تركت كل شيء في سبيلك؟ إنني لاأهتم حتى بزوجتي وأطفالي وعندما أواسدها كأنني أواسدك أنت.

وتنهض مريم وتطوق عنقه البدين بذراعيها الدافئتين ثم تقبل شاربين كثين يعلوان فمه وتهمس :

- إنني أدور يا قحطان ثم أعود إليك فلا تخف من نزواتي الطائشة هذه، إنها حكايات عابرة وأنت وحدك الحقيقة الباقية.

- أيتها العاهرة كم أحبك.

الرؤوس المنكسة مشدودة إلى الخارج بأطفال وبيوت ومصاريف ووحدي الخالي الذي لم يخلف في الخارج إلا والدا مزواجا تقبل الأمر بصمت.

عاد حسون السلمان من مجلسه مع الشيخ وحامد الشعلان وتمدد في فراشه، وجهه الأحمر منقبض وشعره الأكرت ينتصب كشعر قط ينوي الشجار، تأوه ثم قال:

- وقت ثقيل.

- ولماذا تفكر به؟ هل تنتظر شيئا؟

وهز رأسه بالرفض.

ثم سألته :

- كم أتمنى أن أمتلك جسد امرأة، وأنت؟

- أرجوك أغلق هذا الحديث فليس بمقدورنا الآن حتى مضاجعة ثقوب الجدران.

- وماذا تتمنى إذن؟

- ربما جلسة في مقهى الحاج كاظم ألعب فيها الدومينو مع عدنان وصاحب، هذا كل شيء.

- ولكنني أشتهي زجاجة عرق ماستكي حقه 16 من وديع باكوس(*) وسيبدو كل الحراس خلف السور أشبه بالديدان الصغيرة.

(*) عرق ماستكي حقه 16 هو نوع من الشراب الشعبي المسكر في العراق، ووديع باكوس أحد باعته المعروفين في الناصرية.

وهز حسون يده ساخرا وهو يقول:

- لقد كثرت تمنياتك هذه الليلة.

كان الباص قـد لفظ كريم الناصري من بين ركابـه، وكانت يسرى توفيق تسـبقه بخطواتهـا بينما تلعب الريح بشـعرها وتنورتها فـأصبح المجال أمامه كافيا لأن يلحق بها ويهتف بصوت مأخوذ:

- مرحبا يسرى.

ولم ترد عليه بل واصلت الخطو، ووجد نفسه يعيد ثانية:

- مرحبا يسرى.

وكان الصمت أيضا صفعة لهذه الكلمات المتلعثمة المطلوقة في العراء، وحاول المواصلة كجندي محاصر يطلق آخر ما في بندقيته من رصاص.

- لماذا لا تردين؟

وهنا أجابت بدلال وارتباك.

- أهلا وسهلا.

كان قـحطان ممـسكا بكتـفيهـا العاريين وكـان ظـهرها منحنـيا وهي تطوق بطنه الكبير.

- لنتحدث اليوم فقط.

- عن زوجك مثلا؟

- أتغار منه؟

- ليس مثل كريم الناصري على أية حال.

- يا للعجب، كيف تغـار من رجل لم يلمسني ولا تغار من رجل يجمعني معه فراش واحد كل ليلة؟

وأمسك بها من أذنها وقال:

- أتتزوجينني؟

- وزوجتك؟ وأولادك؟

- سأسحقهم جميعهم، وسننتقل إلى مدينة أخرى ونبدأ هناك من جديد، أنا وأنت فقط.

كان صوت محسن خليل وهو يقرع الآذان أشبه بالنفير الذي يلبي دعوته كل السامعين وينقادون وراءه. إذ كانت نبراته تسقط على مكامن الجراح وتوغل فيها فتلألئ نجوما لم يعد لها بريق.

وأخذ حسون السلمان يعض على شفته منصتا، ولكنه التفت إلي ولكزني وكأنه تذكر شيئا وقال:

- أعندك علم بما يعانيه محسن خليل؟

- إنه محب موله أليس كذلك؟

وقرب فمه من أذني وهو يهمس:

- إنه مغرم بغلام.

وبلع ريقه ثم أردف:

- غلام بغدادي أبيض، كنت أراه على الدوام.

ثم أصغى ثانية للغناء.

كانت لحية حسون التي لم يلحقها منذ أيام قد أظهرت رأسه أشبه بحزمة من الصوف المغبر، وقد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يتزود بطاقة جديدة على مواصلة الكلام.

- لقد طالت الحكاية.

- لم أعهدك هكذا؟

- أنا اليوم حسون آخر، جبان متردد، زائد، فماذا تنتظر مني؟ أتنتظر أن أكلمك عن البطولة؟ أين البطولة هنا؟ كيف أعبر عن وضعنا التافه؟ أتنتظر أن أنفخ صدري وألقي كلمة عريضة عن

الجماهير والشمس والمستقبل وأصب الأفيون على رؤوس المنصتين كما كنت أفعل من قبل؟

وأحسست بأن علي أن أوقف مجرى هذا الحديث الذي يؤلم حسونا كل الألم فالمسألة بالنسبة له ذات مغزى آخر غير مغزاها بالنسبة لي، إنه معاقب بماضيه بينما أعاقب أنا عن حاضري. وإن وجوب الصمت ملح هنا فأية ثرثرة أبديها ما هي إلا تشهير بسقوطي وليس هناك من داع لهذا فالوجوه كالمرايا تعكس ملامح مهزومة واحدة ولاشيء يشحن الصدور بهمة جديدة .

قلت له محاولا تغيير مجرى الحديث:

- لنتحدث عن أيام الطفولة فهي أنقى لحظاتنا، أيامنا تلك الخوالي قبل أن تمتد إلينا الأيدي.

وابتلعت ريقي وقلت متمما:

- كنت شجاعا إلى درجة التهور هذا الشيء الذي سلب مني فيما بعد واذكر واحدة من هذه المواقف حيث سافرت مع عمي إلى قريته وبعد أن لفظتنا السيارة الخشبية التي تقل الركاب بين الناصرية والرفاعي على الطريق العام في ساعة متأخرة من الليل، كان علينا أن نمشي أكثر من ساعة بين القصب والبردي والأنهر الصغيرة التي تتفرع من الغراف، إضافة إلى ما قد يعترض طريقنا من خنازير وذئاب وبنات آوى وأفاع، التفت عمي إلي آنذاك وسألني:

- هل تريد أن نواصل السير؟ أم ننزل في ضيافة إحدى القرى القريبة ونرحل عند الصباح الباكر؟

فأجبته مسرعا:

- كما ترغب.

وعاد يسألني بصوت عميق شجاع تلاشى أمامه كل الخوف وكل رهبة الليل والأصوات الموحشة:

- ماذا تقول؟

وأجبته بثقة:

- لنواصل .

ومضى عمي أمامي. كان طويلا ضامرا يوغل في الظلام فيبدو كالحقيقة التي يعلو صوتها رغم كل المؤثرات، وكان يلف عباءته الحمراء على ذراعيه كبيرق المنتصرين وفي يده هراوة كبيرة يتحسس فيها طريقنا بين المياه والحفر، وكنت أمشي وراءه مدفوعا بشجاعة غامضة، وعليك أن تعرف يا حسون أن الموت كان ينتظرنا في كل لحظة إن لم يكن على يد الحيوانات المتوحشة فسيكون على يد أبناء القبيلة المجاورة لنا إذ كان بينهم وبيننا ثأر قديم راح ضحيته أكثر من عشرين رجلا من الطرفين حتى الآن . وعندما وصلنا لم أصدق ذلك، وقد تساءلت مع نفسي: أيها المجنون يا كريم أحقا قد فعلت هذا؟ وفي الصباح أيقظني عمي وقبلني على جبيني ثم نادى جدتي وقال لها:

- سيكون كريم رجلا شجاعا يا أمي.

ولكن عمي كان واهما، فكريم لن يكون شجاعا وإنما هو مجرد قرد حبيس في قفصه ضمن محتويات حديقة الحيوانات.

وكان حسون يصغي إلي بانتباه مركز، ثم علق بقوله:

- شجاعات باطلة كنا نهدرها بجنون.

ثم أشعلت سيجارة وبدأت في التدخين ومن هناك تابعت القول:

- ولكن أمي رحمها الله كانت تعلمني الخوف وتزرعه في نفسي،إذ كانت تحدثني دائما عن حيوانات خرافية غريبة تدعى " الطنطل" تارة

تكون بهيئة قطط وأخرى بهيئة كلاب أو كرات من الخيوط الملونة، وهي تترصد الأطفال في الظلام. وعندما كنت أكذب ما تقوله كانت تصر على ذلك وتقسم أغلظ الأيمان بأن أم فلان قد رأتها وأن أبا فلان قد اعترضت طريقه قرب "بستان زامل" وقد بدأت أخاف فعلا حتى إذا رأيت قشة في الظلام تحركها الرياح حيث أتصورها واحدا من هذه الحيوانات.

وعلق حسون على قولي:

- كانت أمي أدام الله بقاءها تضع الودع في جيبي وتعلق حجابا في صدر سترتي مخافة أن تحسدني العيون لأنني كنت أحمر الشعر والوجه في مدينة كل وجوه أبنائها سمراء وكانت تظن أن الشياطين يدخلون الرؤوس المتوجة بشعر أحمر.

ثم انفجر ضاحكا مما فاه به، وقلت:

- أظنهم قد دخلوا فعلا.

فركت مريم يديها ثم تأففت وبدت حمرة خديها متناغمة مع لمعان شعرها القاري وانحدرت نظراتها إلى كريم الناصري الرابض أمامها فتلقفها بوجومه المستكين، وتلألأ شعاع هاتين العينين العظيمتين، فأحس وكأن حفنة من الرمل قد طمرت عينيه فجأة، فأغمضهما وأطرق، وتساءلت:

- ما بك؟

- لم أنم جيدا الليلة الماضية، لقد بقيت في مبنى الجريدة حتى الصباح.

- وإلى متى تبقى هكذا؟

- لست أدري.

ثم نهض من مكانه وتطلع من النافذة إلى الوحشة التي يعكسها المناخ المنقبض في داخله، طافت نظراته فوق رؤوس النخل والمآذن والعمارات، حلقت طويلا ثم انكفأت إلى الداخل .

- مريم، أَلَدَيْك رغبة أكيدة بي؟

- ماذا تقصد بالضبط؟

- أقصد هذه الرغبة المطلقة التي لا تخضع لمصلحة؟

- جدا.

ثم نهضت من مكانها ومضت نحو الباب وأطبقته ثم خطت صوبه وطوقت خصره بذراعيها، وتمتمت:

- أردت أن أثبت لك ذلك مرارا ولكنك لم تعطني الفرصة.

وطوقها هو الآخر بشراهة وكأنه كان ينتظر منها هذا العمل ودس وجهه في شعرها وتنشقه بجوع، وطافت شفتاه على عنقها وحنكها وخديها ثم استقرتا على شفتيها في قبلة ملتاعة طويلة.

(وخرجنا عاريين إلى شاطئ بعيد، وانطرحنا على الرمل، هدرت الأمواج، صخبت، عاثت بالسواحل، ثم خمدت وماتت بلا أنين، وعاد قلبي وحيدا كليل اللصوص والسفاحين.

حلم كبير، أليس كذلك؟ هذيان طويل؟

أتذكر يا حسون يوما قلت لك فيه:

- لن أتزوج امرأة امتلكها رجل آخر قبلي.

وها أنا الآن أطارد امرأة لهث على صدرها رجل من أعواما طويلة).

- 9 -

- هل ترى شهرزاد هذه الأيام؟

- كنت معها في الجمعة الماضية وقد تغدينا سوية في مطعم "الجندول" وسألتني عنك وقالت بأن كريم الناصري فحل قوي.

وانطلقنا مقهقهين، ثم علق كريم:

- وهي امرأة رائعة أزالت كل آلام ظهري.

بعد أن أنهى حامد الشعلان ترتيل بعض الآيات القرآنية بصوته الأبوي تمدد في فراشه، وبدأت الأحاديث الجوفاء تحتشد، وجاء دور محسن خليل ليغني، ودوري لأغسل الأواني. هذه التحركات المنهجة هي التي تسير حياتنا اليومية الباردة.

وعندما أنهيت عملي تناولت المنشفة ومسحت يدي، طالعتني أظافري الطويلة فالتقطت موسى من صندوق الحلاقة وبدأت بتقليمها. غنى محسن خليل وأوغلت معه في بطون الأشياء وأصبحت في المنتصف يسري في خلاياي نسغ لا يروي، وزرعت في أعصابي يقظة معذبة سرمدية أشبه بوخز الإبر المتلاحق. على الرغم من أن هذا الصوت ليس فيه ما هو غير اعتيادي وهو شبيه بالكثير من الأصوات التي تتقيأها أغاني الريف والغجر، ولكنني

أتساءل: أيكون لوضعي الاستثنائي أثره على هذا التشهير وهذا الاضطهاد اللذين تخضع لهما أعصابي كلما استمعت إلى صوته؟

قلت لحسون :

- أعطني سيجارة.

ورد على الفور :

- أنت تدخن كثيرا هذه الأيام ؟

وضع كريم الناصري يديه خلف ظهره وأخذ يغني هاملا جابر الموصلي المتدحرج بجانبه هو وشارباه الأنيقان.

- مسكين أوفيد.

وانتبه جابر الموصلي إلى كلماته متسائلا:

- ومن هو أوفيد هذا؟

- شاعر الإمبراطورية الرومانية.

ثم أردف:

- مسكينة أنت يا كورينا.

وقال جابر ضجرا:

- لا تدخلنا في محراب فلسفاتك.

وتابع كريم الناصري بلهجة متباطئة دافئة:

- "ما تمنحينه إياه في السر امنحيه من قبيل الواجب، ولأنه يجب عليك ذلك، ولكن مهما يحدث لك من قضاء انكري أمامي بعناد في اليوم التالي إنك كنت له"، هكذا كان أوفيد يخاطب حبيبته كورينا التي تزوجها رجل آخر غيره.

- اغطس في برك الوهم.

- وهل هناك شيء آخر؟

- لا شيء مهما، قد يرمونني وأنطرح كواحد من الكلاب السائبة التي تخلفها القوافل المارة بالناصرية في طريقها إلى الصحراء. لن أغير العالم ولن أجعل الشمس تطلع من الغرب فلماذا أضطهد هكذا؟ ماذا لو أطلقوا سراحي الآن هل سأحمل السلاح ضدهم؟ إن أول عمل أقوم به هو الذهاب إلى أقرب حانة لأسكر حتى الموت.

- كنت تحتقر ترددي؟

- الجو خانق يا حسون لا يسمح لك حتى بموقف بطولي أخير تودع فيه حياتك. السأم المريع ينسف الأعماق ويبددها هباء.

احتضن كريم الناصري رأسه بكفيه وراح يتنصت إلى خشخشة الأوراق التي يقلبها جابر الموصلي.

- جابر؟

ورفع جابر رأسه مجيبا:

- هل هناك شيء؟

- لا، ولكنني أريد أن أثرثر معك.

- ومتى كان كلامك معي جادا؟

- اسمع يا جابر، أنت حسبت على جهة وأنا حسبت على جهة أخرى ولكن لماذا تآلفت معك وتآلفت معي إلى هذا الحد؟

- إن للعلاقات الإنسانية الطيبة انتماءها الأكبر.

- إذن لماذا أخذت الأمور ذلك المجرى؟

- نحن الآن جميعا تحت وطأة ثقل واحد، والواجب يدعونا لأن نتطهر من أحقادنا الدفينة حتى لا نظل صيدا سهلا بيد الرجعية إلى الأبد.

- هل نستطيع ؟

- ولماذا لا؟
- ألا تعتقد بأن النهر ما زال هائجا؟
- ولكنه سيهدأ يا عزيزي كريم سيهدأ.
- أليس هذا حلما؟
- ولكنه حلم ممكن.
- **لقد أتعبناك يا محسن؟**
- **إن الغناء دواء لي وليس لكم فقط.**
- **إن صوتك الشيء الوحيد الذي نتفق على الإنصات له هنا.**

تحسس شفتيه بأطراف أنامله، وتذكر جسد مريم اللدن الذي انتفض بين يديه، وتلك القبلة المخصية التي لم تنجب قبلا أخر.

ونفض غبار السيجارة المستقر على سترته الرمادية ثم خلعها وعلقها، وكانت مريم أمامه هادئة مستكينة، وأخذ يستمع إلى صوت تنفسها الرتيب، وخال نفسه واضعا رأسه على صدرها بحب وأمان.

ضغط زر الجرس وحضر الفراش.

- هات فنجاني قهوة.
- أنا لا أريد.
- سأشربها بدلا عنك.

وأخذ يتأمل يديه الكبيرتين بأصابعهما المعروقة فتخيلهما حيوانين غريبين يحطان على زجاج المنضدة، وود لو يقطع أناملهما.

- أنت تخيفني عندما تنظر إلي هكذا.
- بسبب جوعي إليك.

ثم غيرت الحديث بقولها:

- لقد تشاجرت البارحة مع زوجي، أوامره ثقيلة علي.

- على أية حال هذه مسألة تخصك.

وارتجف صوتها وهي تقول بعتاب:

- إذا لم تسمع شكواي أنت فمن يسمعها؟

الثرثرة كثيرة في هذا القبو، وحسون بجانبي لم يبرأ لحظة وما زال سخطه يزداد يوما بعد آخر قضايا جديدة برزت من جراء الانتظار اليائس وسوء التغذية والأمراض. وارتفعت صرخات بعض المدمنين الذين لم تزر الخمرة أجوافهم منذ شهور، ويترأس قائمة المدمنين عامر صبري وهو موظف هرم رأسه أشبه برأس دجاجة تطاير ريشها. وعندما يمد يده لالتقاط حاجة ترتجف مسرعة وكأنها تتوجس خيفة من الاستقرار على مكان، تأجل زواجه في بداية سنواته في الوظيفة حتى يرتفع مرتبه وعندما حصل له ذلك وجد نفسه مريضا مدمنا متقدما في السن ولا يطيق إرضاء جسد امرأة فبقي وحيدا يعيش مع أخته الأرملة، والتي كانت تزوره في أيام اعتقاله الأولى وقد أخفت زجاجة العرق في طيات عباءتها وعندما تعانقه تدسها في جيب بيجامته. ومند أيام وهو لا يقوى على النوم فقد انقطعت المواجهات وافتقد الخمرة أكثر من افتقاده للحرية. استلقى عامر صبري ظهره ودخل في نوبة بكاء مقرفة، أخذ يرتجف بعدها وكأنه يصارع عدوا مجهولا والزبد يغطي جانبي فمه و يهرج بكلمات غير مترابطة.

نهض من مكانه وعوى بصوت جريح:

- ألعن اليوم الذي عرفتكم فيه. ما الذي ربحته منكم؟ زجاجة عرق واحدة لا يوفرها لي حزبكم؟

و نهض حسون غاضبا و صرخ فيه:

- اصمت أيها القذر.

- لن أصمت بعد، لا أريد أن أبقى معكم.

فعض حسون على شفته و صفعه بقوة فألقاه أرضا.

قال جابر الموصلي:

- لماذا اليأس؟

- و أجاب كريم الناصري:

- و هت هناك حل آخر؟

(هذا الركـود لا مـعنى لـه يا حـسـون، يجب أن أتحـرك، أن أنتـقض من هذا الاسـتـلاب الفظيـع، لا أريد أن أبقى مـحنطا هكذا في انتظار اليوم الذي يتهدم فيه جسدي ولن يقوى على الإبحار. ويـرتسم فيـه على مرآتي وجـه مخيـف تساقطت فـيه ألوانه وانطفأ بريقه.

إنهـا الآن أمـامي وتبـدو فـزعـة حـائرة كـواحـدة من بغايا الميدان).

-10 -

الليل يتهالك على بيوت "الناصرية" الفزعة وعلى أجساد الرجال الأسيرة حيث لا شيء يملك حيوية التجدد والاستمرار. والمداولة في الأمور الصغيرة تتكرر برجع ثقيل، و أنا كدر حتى الموت لا أطيق أن أتظاهر بأية عاطفة أمام فقدان الصواب الذي يكتسح الموجودين.

قبل ليلتين بدأت التحقيقات في معتقلنا، وأخذ عدد الموجودين يقل تدريجيا. وكان المعتقلون الذين يأتي دورهم في التحقيق ينقلون إلى مكان مجهول مكللين بالصمت والغموض، وكثرت التقولات والتصورات.

- إنهم يقتلونهم.

- يدفنونهم أحياء.

- ينقلونهم إلى الصحراء.

وتنتشر الشائعات:

- لقد مات الشيخ.

ويعلن رياض قاسم:

- أنا على استعداد لأن أموت بدلا عنه.

ويصرخ فيه أحد المعتقلين:

- ليس المجال مجال بطولات:

ويعلق آخر:

- المهم أن ينجو كل واحد بجلده.

ويقول محسن خليل:

- من يعترف يسلم برأسه.

وأقول لحسون:

- الرجولة هنا في أن نقاوم عذابنا الخاص.

خطوت بعيدا عنهم، اشتهيت أن أملأ صدري بنسمة من شاطئ الفرات أطهر بها صدري من العفونة الدبقة هذه، تأففت ضجرا، ثم تمخطت ومسحت أنفي، الوقت يثقل ويدفننا بصخوره وكثبانه.

أحضرت أدوات الحلاقة، وقبل أن أضع الصابون على وجهي، تأملت ملامحي الذابلة فأفزعتني، كان وجهي ميتا كورقة خريفية وقد جفت فيه تلك النضارة التي كانت تشع من بشرته الداكنة، ووددت لو أن بإمكاني خلع هذا الوجه البالي وارتداء وجهي القديم.

تلفت صوب الأماكن الفارغة، وافتقدت وجه الشيخ، ووجه عادل ومحمود وفاضل، لقد مضوا كلهم، أخذوهم إلى عالم من الفراق والرعب، وتركوا وجوهنا تقطر أسى ولوعة، ويعضنا الألم دون أن نطيق تبديده بأي فعل.

ما الذي سيبقى مني؟ وأية أوسمة آمل أن أعلقها في صدري المسحوق؟ وأي طموح بقي لهذا الذابل الوحيد؟ لو كانت معركة حامية وتستقر في رأسي رصاصة لكانت نهاية مليئة مقنعة ولأدرج اسمي مع كتائب الشهداء، أما هذه النهاية الباردة التي أغوص في وحلها تدريجيا فأفضل عليها لسعة ثعبان أو عقرب، أوه ليتني أستطيع قطع وريدي بموسى الحلاقة.

- قل لي يا محمود ما الذي تفعله لمن كان السبب في كل تعاستك وشقائك؟

- إن كان إنسانا سأقتله، وإن كان فكرا سأنذر كل ما تبقى لي من أيام في سبيل تدميره.

(أحس يا حسون بأنني منقاد إلى هوة الجنون إذا بقيت على هذه الحال، هل ينتهي عذابي بقتل مريم عبد الله؟ هل ينتهي بخروجي من أساركم ؟ هل أطيق أن أغير اسمي ولوني وتاريخي وأرتمي في الشارع مثل السائرين فيه؟ أحس بأن حبي لمريم قد تحول إلى حقد دفين فهو عثرتي بعد أن نهضت، وسجني بعد أن تحررت، إن الحانات تعرفني بهامتي المكفهرة التي تثمل بصمت وتترسب في برك الوحل والقذارة. وها أنا الآن أحمل في جيبي سكينا طويلة متلألئة كمياه الأمطار، وأفكر بجنون في غرسها في صدرها الجاحد).

***

كان رياض قاسم يتمشى داخل قاعة المعتقل وعندما رآني وحيدا اتجه صوبي وحياني.

سألته:

- ما أخبارك؟

قال بأسى:

- إنني مشتاق لوجه أمي.

- والخوف؟

- ولماذا الخوف؟

وتجنبت سؤاله بقولي:

- حقا، لم الخوف؟

- لقد عهدتك شجاعا يا أستاذ كريم؟

وقلت وأنا أطأطئ راسي:

- وما زلت يا رياض ولكن الأمور تأخذ منحى جائرا.

ثم أخذنا نتمشى في الفسحة التي تركها نقل بعض المعتقلين.

- ما هي آخر قصيدة كتبتها؟

- كتبت أشياء كثيرة.

- ولكنك لم تقرأ شيئا منها؟

- أحس بأنك لست على ما يرام، لذا ارتأيت أن لاأزيد في متاعبك.

واقرأ في وجهه ملامح وجهي القديم، ولو امتدت به السنوات والأحداث لامتلأ بالخدوش ولتسرب إلى قلبه نسغ التشوه، ولتأرجح رأسه هنا وهناك.

- هيا أسمعني ولو قصيدة واحدة.

***

(شهرت السكين وألقيت بها أمامي، كانت براقة ومرعبة، ستنفذ بسرعة إلى أغوار صدرها، وستبيض عيناها وتسقط متلاشية تحت قدمي، ثم أنتزعتها من صدرها وأغرسها في صدري لنموت معا ميتة رومانسية رائعة تصلح نهاية موفقة لمسرحية تراجيدية قاتمة ولكنني أحس بالشلل يا حسون وتمضي الكؤوس في تهديم قحفي المكابر).

***

تعالت أقوالهم وتعليقاتهم وكثرت تشاجراتهم وشتائمهم، وكانوا يفسرون صمتي التام وعزلتي الكلية عنهم تعجرفا وتعاليا بادئ الأمر، ولكنهم اعتادوا وضعي وعلمتهم الشهور الطويلة كل شيء عن بعضهم.

أما حسون السلمان فقد خمد مرحه الساخر وشحب إلى حد مرعب، وبدا بلحيته الحمراء التي أهملها دون حلاقة كواحد من الأسرى القيصريين. وبينما كان رياض قاسم يوالي قراءة قصائده ارتفع صوت حامد الشعلان مرددا : «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا».

وتمتم حسون السلمان:

- صدق الله العظيم.

- يسرى، أرجوك افهميني.

وكانت تقطع الطريق مسرعة، وقد عجز عن إيجاد كلمة مناسبة توقف تمردها لتنصت إليه.

- لماذا تتهربين مني؟

- وهل يليق بنا أن نتصرف هكذا؟

- إنني صادق النية معك أقسم لك.

وتوقفت، ثم التفتت إليه بهدوء، وأصبح وجهها أمامه بإشراقته المعجونة من الخمر والعسل والنور، وانطرحت على جبينها العالي خصل من شعرها السبط القصير، تساءلت:

- لماذا تتعب نفسك هكذا؟

- أريد أن أتزوجك.

- وهل تتصرف هكذا إذا أردت ذلك؟

- ما الذي أفعله إذن وأنت شحيحة معي لهذا الحد؟

ثم أخذا يتمشيان ببطء، وتنتقل خطواتهما في الدرب العاري على إيقاع واحد، قالت:

- ألم تتعب من ملاحقتي؟

- أردت الوصول إليك أي ثمن.

- لقد أحسست بميلك نحوي منذ أن رأيتك أول مرة، وخمنت بأن عينيك اللاهثتين ستسوران حياتي. ولكن هذا لا يكفي، فما الذي تعرفه عني؟

- يكفي أن أحبك.

- تحبني كصورة، ولكن ليس كإنسانة؟

- اسمعي يا يسرى أنا فنان ومن المستحيل أن يخطئ حدسي في الناس، أنت صنو روحي وقد بحثت عنك طويلا بين الوجوه، وقد وجدتك وأنا في أشد فترات حياتي قتامة ويأسا ولن أتخلى عنك، سأستمسك بك بكل قوتي وأعصابي.

(بها وحدها أستطيع أن أسحق انكساري يا حسون، وأمحو عاركم وأسطورة مريم عبد الله، وانطفاء أسيل عمران. ولو رأيتها يا حسون لفغرت فمك عجبا، وإنني أتساءل هنا: كيف ستبدو أسيل عمران أو مريم عبد الله أمام هذا القوام الإسبارطي الرهيب؟).

-11-

تناهى إلى أسـمـاعنا صـوت مـحـرك سيـارة توقـفت عند باب المعتـقل، وتجمع المعتقلون حـول الشبابيك ليتطلـعوا إليها، فـقد كان الذعر يعـسكر في القلوب منذ أن بدأت التحـقيقـات، وكنا لانعرف من الذي سيكون له الدور في المرة القادمة.

نزل من الـسيارة بعض رجـال الشـرطة، وفتـحوا البـاب، ودخل أحدهم، كان قصيرا منتفخ الوجه والبطن، ونادى بصوت بشع:

- رياض قاسم.

ورد بلا مبالاة.

- نعم.

وعاد الصوت ليقول:

- هيئ نفسك بسرعة.

- ماذا تريدون مني؟

- سنأخذك إلى جهنم.

- جهنم تحرقك.

- كلب.

وخطا أحـدهـم صـوب رياض وضـربه على ظهـره بأخـمص البندقيـة، فأمـسك به رياض ثم دفعه بقـوة وألقى به على الأرض،

فابتسمت حماسة، ولكن بسمتي اختنقت عندما تقدم شرطي آخر وضربه على رأسه بكعب بندقيته فسقط على الأرض فاقد الوعي، ثم جروه وحملوه إلى الخارج وتركوا ملابسه وحاجياته الصغيرة دون أن يأخذوها معه.

قال حسون :

- لقد انتهى أمره.

وابتلع القاعة صمت بليغ.

في رأسي فوضى شديدة، صراخ، طقطقة صنوج، ثغاء نعاج، أنين محتضرين، صهيل خيول، لم أجد ما يحررني، فانكفأت على وجهي منتحبا.

وعندما وقعت عينا حسون علي قال:

- لا داعي للبكاء، اجلس وانتظر دورك، فربما نحن الشمالة الجيدة في حسابهم.

وأخذ صوت حامد الشعلان يردد بنبرة هادئة عميقة:

- «ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لانعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون. صدق الله العظيم».

- أرجوك يا كريم أن تفهم أن المسألة لم تكن تصفية حساب، وإنما كانت تنقية جو.

أفهم هذا تماما وأقدره، لا تتصورني أتعامل بعشائرية فلست حاقدا على أحد بقدر ما أنا حاقد على أخطائي أنا.

***

كانت مريم تسبقه بخطواتها وقد جاءا إلى الشركة في وقت متقارب، تأملها وهي تنحني لتقطف زهرة حمراء متفتحة، وأخذ يراقبها بانتشاء ناعم وود لو تبقى على هذه الحال لاستطاع وهو يتأملها أن يكتب "أوديسة" جديدة ويلاشي كل أمجاد "هوميروس" ويخلق من مريم "بنيلوب" أخرى لم تستطع كل أسفار "يوليسيس" أن تنسيه طعم شفتيها ولمساتها الحانية.

- صباح الخير.

فرفعت إليه وجهها وقد زرعت عليه بسمة صباحية رائقة، وأحب أن يمضي عنها ويتركها متنقلة بين الزهور كزهرة إلهية كبيرة، تنشر تنورتها المكسرة بين الأغصان وترفع شعرها الفاحم القصير تاجا على مملكة قلبه.

- صباح النور.

ولحقت به وسألته برفق:

- كيف أحوالك؟

- لا بأس، كما ترين.

ثم تسلقا السلالم المؤدية إلى غرفتهما، وكادت أن تعثر على السلم فالتقطت يده ثم اتكأت على جسده المديد، وضغط أصابعها الصغيرة بين أصابعه، وأحست باللذة من بقاء يدها في يده، ولكنها سرعان ما انتبهت لوضعها فانتزعتها منه.

- إننا نغرق في الخطيئة.

ولم يرد على قولها بل أخذ يدخن بتثاقل، ومضى بهما الوقت بطيئا حتى سألته:

- كريم، هل تشعر بأنني قد آلمتك؟

- لم تؤلمني بقدر ما آلمت نفسي.

ثم أردف قائلا:

- هناك أمور رسمت خطأ ولا يمكن تصحيحها أبدا، لا بنقودنا ولا بأفكارنا ولا بأسمائنا، وأنت يا مريم واحدة من هذه الأشياء التي رسمت خطأ في حياتي.

- أنت حملت الأمور أكثر من أبعادها، لقد تصدع رأسي من العواطف السخيفة التي تصبها فيه.

ونهض ذاهلا مرتجفا:

- أتسمين عواطفي سخافة؟

- لقد ضجرت، أتفهم؟

- أتتحدثين عن عواطفي التي أقدسها بهذه السخرية؟

ثم أمسك بها من شعرها بقوة، وأخذ يضرب رأسها في المنضدة بعنف وهو يصرخ مسعورا:

- أكرهك، أكرهك أيتها القحبة الرخيصة.

ثم تركها بعد أن تعب وعاد إلى مكانه لاهثا.

ولم ترد عليه بل أصلحت من وضع شعرها، وأطبقت أزرار فستانها وجلست تبكي.

(ألم أقل لك بأنني على وشك الجنون ؟ وإلا فماذا تسمي وضعي ؟ بأي حق أعاملها هذه المعاملة؟ أأطيق مداواة خزي الأعماق بهذه الأفعال المريضة؟ إنني مقتنع يا حسون بأنني لاأملك دورا وسأظل مطاردا. لقد رأيتهم يتساقطون أذلاء أمام عيني فندمت على كل لحظة أضعتها معهم، أيشفع لي وجهي المزروع في الجريدة .. إنني كريم الناصري أعلن براءتي من...

وسأكون مخلصا ل... الخ ما جدوى أن أستعيد جزئيات هذه المعارك البائدة؟).

عندما مرر قحطان يده المشعرة الكبيرة على فخذها بدأت بالنشيج ولم تفد توسلاته معها.

- ما بك؟ ألا تسمعينني؟

أجابت من بين الدموع:

- سأتخلى عنك يوما.

وانتفض كبعير ملسوع:

- ماذا قلت؟

- سأكون كلبة تطارد كريم الناصري أينما حل.

توجهت صوب مكان حامد الشعلان الذي كان يردد بعض الأدعية والصلوات وشفتاه تتحركان حركة سريعة كالارتجاف، وتفرست في وجهه متأملا آثار الجدري القديمة المتناثرة على خديه وجبينه ممتزجة بتجعدات وجهه الهرم، فبدا لي كخرقة متسخة بالية ولولا الهدوء الذي تعطيه عيناه لما أصبح تأمل وجهه محببا.

وبعدما أنهى المراسيم الأخيرة لصلاته ابتسم بوجهي وتمتم:

- أهلا، أهلا وسهلا.

- أهلا بالعم.

ثم انضم إلينا حسون سلمان.

وعقدت جلستنا الثلاثية في بطن هذه العلبة التي بدأت تفقد محتوياتها تدريجيا. وقال حامد الشعلان وهو يمسح أنفه:

- على الإنسان أن يؤمن بالله وإن فعل ذلك ستموت كل هواجسه ومخاوفه، وسيجد لحياته معنى، وتصطبغ بالهدوء والقناعة.

وقال حسون ببساطة:

- كلنا نؤمن بالله.

وسأله حامد الشعلان:

- إذا كنت تؤمن به حقا، هل فكرت يوما في أداء فروض دينه؟

- لم أؤد هذه الفروض ولكنني لم أؤذ واحدا من الناس، وأحاول دائما أن أحق الحق في كل مكان أجد فيه الخطأ مستحوذا، ولم أرتض أن يلحق الظلم بإنسان حتى ولو كان عدوي.

وأمسكت دفة الحديث وقلت:

- وهل الإسلام في تأدية هذه الطقوس فقط والتي تؤديها راكعا ومكبرا؟ والتقط حامد الشعلان سيجارة، أشعلها ثم أجابني بلهجة متروية:

- اسمع يا ولدي، إن الإسلام يحاسبك على حقيقة نيتك نحو الأشياء ولا يكتفي بما تبديه من طقوس كما أسلفت، يريد الإسلام منك حسن النية وصدقها ليخلق منك ذلك النموذج النقي الإيجابي من البشر، وأنا أنصحك بأن تغلق أذنيك عن النداءات اللقيطة التي تسمعها أوتقرأها، فمهما تمردت وانتابك الغرور لابد لك من عودة إلى أرض الله وطريقه. إن آراءك لن تضر الدين ويظل جوهره يا ولدي بعيدا عن هذه التخرصات، وما يروج اليوم من فهم مبتور ليس إلا حجة يستمسك بها الفارغون الجهلاء ليشوهوا صدق الإسلام ولكنهم لن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا.

ثم أخذ يسعل بصوت حاد، ونهض حسون وأتاه بقدح ماء شرب نصفه وواصل الكلام:

- أما القرآن فهو آخر كلمات الخالق تعالى إلى عباده على اختلاف ألوانهم وقبائلهم ولغاتهم. فهو يخاطب العباد فيه من خلال نبيهم، فتعالى شأنه عندما يقول: "فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر" إنما يخاطبنا نحن.

وقلت :

- لو اطلعنا على العلم الحديث الذي له أسسه للوضوعية وجدنا أن مناهجه لا تؤمن بالروحانيات والغيب والوحي؟

وصمت طويلا ثم قال وهو يشير بسبابته إلى وجهي:

- لقد كنت أؤمن بمطلقية العلم، كان ذلك في الماضي ويوم كنت في سنك وفي بداية عملي الحزبي والسياسي، ولكنني عدت للصواب بعد بحث طويل ووجدت الأمان والرضى في الإيمان.

وكان حسون واضعا يده على خده منصتا لأقوال حامد الشعلان بكل جوارحه.

واعتدلت في جلستي وتنحنحت قبل أن أقول:

- ألا تعتقد بان هذا يخلق بشرا خائفين مترددين؟

- يا ولدي، على المسلم أن يعرف أنه مخير، وأن وجدانه هو الذي يدفعه لا خوفا ولكن إيمانا.

والتفت إلي حسون معاتبا:

- لا تلح على العم، لقد أتعبته. دعه يهدأ قليلا.

ورد حامد الشعلان:

- إنني أجاهد الآن، أدافع عن دين الله، وكلما تعبت كسبت ثوابا أعظم.

ثم علقت محاولا إنهاء هذا الحديث الممل:

- لي معك أيها العم أحاديث طويلة فأرجو أن تكون رحب الصدر.

- لقد دعا ديننا إلى الجدال الحر والحكمة والموعظة الحسنة، وخير دليل على هذا قوله تعالى: «وجادلهم بالتي هي أحسن» صدق الله العظيم.

- كريم أنت مخطئ في أفعالك وتصوراتك، ولا أريد أن أحرجك بهذه الأقوال بل إنها الحقيقة، لماذا لا تدرك بأنني إنسانة مثل كل الناس وأنت تريد أن تلبسني مسوح الآلهة؟ لماذا تتعبني هكذا؟ اسمع، إنني على استعداد لأن أمنحك جسدي راضية، هيئ لك مكانا وسأوافيك في أي وقت تريد.

- 12 -

(الصداع لم يسامح رأسي لحظة واحدة، والمقت يتضخم كالجبل على صدري، وأود أن أبصق على كل وجه يصادفني، ومريم التي أحببتها، مريم التي أردتها مطهرا من رجسي وخطاياي تعرض علي جسدها تريد أن تعقد معي صفقة، تماما كما تفعل شهرزاد أو غيرها من البغايا اللواتي لهثت على صدورهن في لحظات ثمالتي، أوه، لقد رتعت في الغي حتى ثملت يا حسون، ابنة الكلاب تريد أن تدنس عواطفي وتذلها وتتهيها في مضاجعة رخيصة نسرقها من زوجها والزمن والناس؟ أعريها وآكل جسدها الطري، أوغل في كل خلية منه؟ وينهق حمار الجنس في رأسي فأفقأ عيون أخيلتي البيضاء، وأقذف بشبقي ولوعتي بين فخديها المحمومين، فتنطفئ مجامر المعبد وتصبح رودا في الريح؟).

قال محمود:

- لقد ألحت شهرزاد على أن تراك.

وأجابه كريم:

- قل لها لقد مات.

- إننا على موعد معها هذا المساء فهل تأتي معنا؟

- أنت بطر يا محمود.

أصبحت منشطرا بين صوت محسن خليل وتلاوة حامد الشعلان، وأوصدت الباب الذي يطل على همومي وعذاباتي، ومن الواضح أن حسون السلمان سيقف بجانب حامد الشعلان ويجد خلاصه في الصوم والصلاة وتلاوة القرآن والأدعية، وسيشفى آنذاك من رعبه الخاص، أما أنا فلن أجد إيماني الفقيد ولن يحتمي رأسي المصدوع بأي ظل.

وأفقت على صوت محسن خليل المستنجد الصارخ بمرارة عذاباتنا الأبدية فانحنى له قلبي.

- لو كنت مكاني لقدرت ظروفي، أقسم لك بأنني لم أقصد اللهو يايسرى.

- إن الحكاية طالت، لسنا مراهقين أبدا، ما الذي يمنعك من التقدم لخطبتي؟

-إنها حالة خاصة يندر أن تتكرر. أنت إنسانة رائعة وعظيمة وبقدر ما أحبك أخاف عليك من هذا الحب ولا أريد أن تربطي حياتك بشريد مثلي مرمي على السواحل كالخشبة التي تقذف بها الأمواج من بقايا السفن الفارغة.

- لماذا جعلتني أحبك إذن؟

- لست أدري يا يسرى، لست أدري، إن المسألة أكبر من تصوري.

- «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» صدق الله العظيم.

فتحت عيني على صوت حسون السلمان وهو رافع يديه إلى السماء بخشوع، والصدق يفيض من حنجرته. وتأملت وجهه بعينين نصف

مغمضتين فرأيت فيه مسحة من الرضى والاستسلام، ولم أستطع الحفاظ على صمتي فسألته:

- ماذا فعلت أيها المهرج؟

- ما الذي ربحناه من دنيانا وأحزابنا غير المعارك الخاسرة؟

فدعانا مرضاة الله فهو دليلنا بعد تبعثر.

وهززت يدي قائلا:

- وهل تريدون أن تحولوا هذا المعتقل إلى مسجد؟

- سنذكر الله إلى أن يأتينا أجله.

ولم أجد ما يشجعني على مواصلة هذا الحديث فنهضت متثاقلا وربت على صدري بقبضتي ثم تثاءبت، وبدأت بتأدية بعض التمارين الرياضية لأبعد الخدر عن جسدي.

كلمات حامد الشعلان وأشعار رياض قاسم وطيبة الشيخ ونكات علوان الحلاق وغناء محسن خليل وسخرية حسون السلمان وهدوء عيني أسيل عمران، وليالي الوحشة والضنك، والطموح السياسي الضائع، والشهور السبعة التي مرت كالدهور، ترهات تلون حياتي ووحدتي في هذا المعتقل الرهيب. قبل أن أعرف أسيل عمران وتكون رفيقتي في الحزب والقلب معا كنت أظن أنني لاأستطيع أن أقيم علاقة متداخلة مع شيء، وهنا أتساءل: إلى متى ستدوم هذه العلاقة ما دام الملل يقف متربصا؟

تأمل كريم الناصري مكانها الفارغ وهو يحتسي قهوته، ثم تلمس مقعدها الفارغ وتحسسه بأنامله وانتقل إلى الآلة الطابعة التي عرفت أصابعها على معدنها وتساءل.

- هل أستطيع البقاء هنا لو لم تكن مريم معي؟ أي دفء أجده بين هذه الجدران الموحشة كآثار "أور" التي كنا نمضي إليها في رحلات

مدرسية فنجدها متوحدة رابضة وسط صحراء بكماء لا يمر فيها إلا قطار ليلي متباطئ؟

ثم عاد إلى كرسيه وارتمى فوقه كصخرة قديمة متآكلة، ووضع رأسه بين يديه منتظرا قدومها.

سأله الفراش:

- هل تحتاج لشيء؟

وتمتم:

- شكرا، ولكن قل لي: هل بقيت مريم إلى نهاية الدوام البارحة؟

- نعم.

- وهل طلبني أحد؟

- كلا.

وعاد ثانية وحيدا ناقما ينصت إلى وقع الأقدام في الممر الطويل المؤدي إلى غرفتهما.

ثم دخلت عليه، فأخفى وجهه بين يديه حتى لا يراها، ولم تمنحه تحيتها فابتلع النصل وظل في اصطلائه الأخرس.

وسألها بعد وقت:

- لماذا لم تسلمي علي؟

ولم ترد على تساؤله.

ونهض من مكانه قلقا دون أن يعرف كيف يتصرف معها في مثل هذا الوضع المقفل؟ ووجد في التدخين خلاصا فأخذ يدخن ويدور في الغرفة. أما هي فكانت تتظاهر باللامبالاة ولكنها كانت معه بكل مشاعرها وحواسها ولو اشتهى أن يمتلكها في هذه الدائرة أمام الموظفين والمراجعين والجدران والشبابيك لما مانعت. إذ أن كل جزء فيها ينبض رغبة فيه وتنوس أضلاعها ألما لأصابعه وسخونته.

كان يفصل مكتبه عن مكتبها ممر صغير وكلما احتاجت لشيء تطلبه منه فيناولها إياه، أما اليوم فلم تفعل ذلك بل نهضت من مكانها ومضت صوب مكتبه وحملت ختم الشركة، فوقف في طريقها، وانتصب أمامها كبناء مهجور ينتظر أن تؤمه أقدام الناس لتعود إليه روحه الأولى.

- دعني أمر.

- لن أسمح.

وابتسمت وكأنها قد سمعت من فمه كلمات حب عظيمة، وشجعته ابتسامتها على أن يمد يده إلى شعرها الذي كانت تكوره آنذاك بأناقة تلائم استدارة وجهها الآسر، وتظهر أذنيها الصغيرتين طليقتين كقطعتي حلوى، وأخذ يمسد شعرها محملا بكل أنامله ما في الأرض من حب وكل ما لدى الأقوام من عواطف. ورددت بأسى.

- لماذا استعملت معي هذا الأسلوب؟

- أرجو أن تسامحيني يا حبيبتي، إنني مريض. فقدت السيطرة على زمامي.

وانسابت يده على ظهرها، وأخذها بين يديه:

- أنت في قلبي وعيني وروحي يا مريم، إنني غريق وأنت طوق النجاة لي.

- لم يضربني أحد قبلك، أتحتقرني لهذا الحد؟

- كيف أحتقرك؟ لو احتقرتك لاحتقرت نفسي لأنني أحببتك هذا الحب القاسي.

وبقيت بين ذراعيه مطرقة، مستسلمة، عاشقة، وعندما سمع وقع خطوات قادمة رفع يديه عنها وتركها تمر.

قلت لحامد الشملان:

- أعتقد أن ما تقوله هو ارتداد متطرف لموقفك السياسي.

ورد علي:

- أنت تظلمني بهذا القول الذي سمعته من آخرين قبلك أيضا. لماذا تأخذ الأمور من هذا الجانب فقط؟ أنا لم أقف بجانب الإسلام خائفا بل وقفت مؤمنا بعد أن وجدت فيه ضالتي ومبتغاي.

ثم شعرت بالصداع وعدم الرغبة في مواصلة هذا الحديث العاقر فاستأذنت منه وانصرفت إلى فراشي. وقبل أن أغمض عيني فتح باب المعتقل ونادى أحد الحراس بصوت عريض:

- حسون السلمان.

ورددت في سري:

- إذن جاء دورك يا حسون.

وقبل أن يرد أردف الصوت العريض قائلا:

- اجمع حوائجك فلدينا أمر بإطلاق سراحك.

- 13 -

(لقد هرفت بكلمات لا طائل من ورائها، كيف أجبر الكسر في حياتي؟ لقد تآمرتم جميعكم علي، أسقطتموني، لماذا تستهدفونني وحدي؟ كلكم مسؤولون عني... أنت ورفاقك القدامى يا حسون، وأسيل ومريم عبد الله، والعالم. لماذا تفعلون ذلك؟ لماذا تتركونني هكذا دابة عجفاء خلفتها القافلة وعلى مقربة منها تربض الكلاب السائبة منتظرة موتها ومتلصصة إليها بعيون تكبت جوعها السحيق؟ ريقي يتلعثم، وجسدي ينهض بالأدوية والمهدئات. لماذا تشهرون بي هكذا؟ ألعنكم).

فتح كريم الناصري النافذة على مصراعيها واتكأ بمرفقيه على حافتها وأخذ يراقب الزقاق العاري الذي لا يعبره في مثل هذا الوقت إلا محررو الصحف الموزعة مكاتبها في هذه الأزقة، وعمال المطابع، وبعض الطلاب الغرباء عن بغداد والذين استأجروا لهم غرفا في هذه البيوت المنسية.

قال جابر الموصلي:

- سنمضي ليلتنا في الحديث فقط، لتنعم المعدة بالراحة هذه الليلة.

وأجاب كريم:

- حسنا ولدي أمر طرأ على حياتي فجأة وأريد أن آخذ رأيك به.

وتمتم جابر بمرح:
- اللهم اجعله خيرا
- ومحمود ؟
- إنه مجاز هذا اليوم وقد سافر إلى بعقوبة لزيارة عمته.

وبعد أن أنهيا عملهما دفنا جسديهما في سيارة أقلتهما إلى مقهى صيفي يرتكن في نهاية شارع أبي نواس.

قال كريم بهدوء:

- اسمع يا جابر، قررت أن أسافر، هذا هو الحل الوحيد الذي ينقذني.

- تسافر؟ وإلى أين؟

- لا أعرف بالضبط إلى أين، فالسفر يهمني أكثر من المكان. ولكن ربما أقصد الكويت فلدي أصدقاء ومعارف هناك وسيجدون لي عملا، وإلا فسأجن حتما، لم أعد أحتمل بعد، حياتي متداخلة ومشحونة إلى حد الاختناق.

وفكر جابر بعض الوقت ثم تساءل:

- هل فكرت جديا؟

- نعم، إنني مصر جدا، ولكن العقبة الوحيدة هي أنني لاأستطيع الحصول على جواز سفر.

- هذه مسألة بسيطة، يمكن أن ندفع ونحصل لك عليه.

- فكرت بوساطة رئيس التحرير؟

- المهم.

- كلما تأزمت الأمور وتعقدت نهرب منها بحثا عن بدايات جديدة. هربت من الناصرية إلى بغداد، وسأهرب من بغداد إلى

الكويت، وربما من هناك إلى أبي ظبي أو أنقرة، ما دمت مطاردا على الدوام، وأنت؟

أجاب جابر:

- سأبقى هنا. إن حزبنا يعيد تجمعه من جديد ولن أتخلى عنه أبدا.

وهكذا أخذت القاعة تخلو تدريجيا، ولم يبق فيها أحد غيري وغير حامد الشملان ومحسن خليل وثلاثة فلاحين ورجل كان يعمل نجارا. وكان الصمت عنوان الهدنة الكئيبة التي تلفنا. ولقد مللنا الثرثرة والمناقشات العقيمة التي لم تحملنا إلى شاطئ، حتى محسن خليل أخرسه الانتظار وكف عن الغناء.

أحس الآن ببطلان وجودي هنا وعمرت بإحساس قانع بأنني على استعداد لفعل أي شيء مقابل إطلاق سراحي لألحق بحسون السلمان وأسيل ومجيد عمران، لألحق بالشمس والمقاهي والكتب وأمسيات نادي الموظفين.

مرت ثلاثة أيام على إطلاق سراح حسون السلمان واستقبلت صباح اليوم الثالث تهدني الوحشة إلى وجهه المنقبض وسخريته المريرة، وتمنيت لو أنه ما زال معنا ليعطي هذا السكوت المعتم ضوءا ومعنى. ثم أسندت رأسي إلى الجدار مطمئنا وأنا أتصوره بين زوجته وأولاده وهم فرحون به بعد غيبة سبعة شهور قاتلة.

قال محمود:

- سنفتقدك كثيرا يا كريم.

وقال جابر.

- لقد تعجلت، هذا رأيي، أن التفاؤل كبير في عودة الصحو إلى سمائنا المربدة.

- أوه يا جابر، يا محمود، يجب أن تفرحا لي، إنني أشعر بانطلاق غريب كلما تحسست جواز السفر في جيبي، وكأنني قد نبت لي جناحان لأحلق بهما في هذا الفضاء الواسع.

(قل أي شيء عني يا حسون، أيها الحاج حسون، فإنني الآن أريد أن أبرأ من الماضي والحاضر معا. أرأيت إنسانا غيري هذا شأنه؟ أريد ان أعيش ما تبقى لي من أيام بصفاء رأس ولا أترك فجوة مني مفتوحة الفم لتنفذ منها ريح أخرى لتعبث بي من جديد. اسمع ياحسون: قبل أيام قال لي الحلاق: إن الشعر الأبيض قد بدأ يظهر في رأسك. وأجبته بمرح: إنه من بقايا جحيم الأعماق. وابتسم دون أن يدرك أبعاد ردي. لماذا لاتضحك أنت؟ أوه يا حسون: لقد شبنا بسرعة، ولكننا مجانين دائما نتصور الأمور تماما وكأننا طلاب في المتوسطة، وها أنا الآن ماض إلى الكويت، ماض لكي احيا أو لكي اموت، لا فرق، إن المسألة أصبحت واحدة لدي، صدقني).

«يسرى الحبيبة

لا أدري كيف أبدأ معك الحديث فأنا في عرفك اليوم جبان فر من الساحة عندما احتدمت المعركة واستعر أوارها. حسنا إنني كذلك؛ ولكن اسمحي لي أن أقول بكل حرارة وصدق: إنك كنت رائعة وعظيمة، عذراء الروح والجسد والقلب، وإنك الحلم الذي سأبكي فقدانه في وحدتي وضياعي وأنا أتسكع على أرصفة المدن الغريبة وأحمله كالسكين في قلبي.

يا يسرى، إن حياتك معي تعني الارتماء في النار والعيش في اصطلاء أبدي قد لا تسامحين نفسك عليه عندما يأتي الصحو إلى

رأسك ولذلك هربت منك قبل أن تهربي مني. فلا تحقدي علي لاتلعنيني أرجوك. كثيرون يتمنونك ويرتمون تحت قدميك، وستنتهي الأزمة بعد أيام. ستتخرجين من الكلية هذا العام وتتوظفين وتتزوجين ويأتيك أولاد وتنسين الحكاية. وإذا مر وجهي في عداد ذكرياتك أريدك أن تبتسمي وتقولي: كان مجنونا كريم الناصري ذاك. لقد أضاعني كما أضاع حياته، وستقبلين وجنة طفلك وتشعرين بالزهو والامتلاء.

أشد على يديك حبا ووداعا.

كريم الناصري»

كنت معصوب العينين عندما حملت السيارة جسدي من المعتقل إلى هذا المكان الذي يجري فيه التحقيق والذي أجهل موقعه من المدينة. ولم أكن خائفا بقدر كنت ضجرا إلى حد الكفر والاستهانة. ولن يهمني شيء أكثر من حسم الأمور بأية صورة كانت.

عند التحقيق قال لي أحدهم:

- لقد انتهت المسألة وليس هناك مجال لبطولة بعد.

وضحكت في سري من كلمة بطولة هذه فهي الافيون الذي قادني إلى هذه الوقائع والأحداث الملغومة. ابتلعت ريقي وأجبته:

- لم ابحث عن بطولات دونكيشوتية يوما.

ثم ارتفع صوت آخر يعقب:

- إذن أنت إنسان مدرك. المسألة بسيطة جدا ولاتستغرق أكثر من عشر دقائق وسيطلق سراحك بعدها.

وأجبتهما:

- ما الذي تريدان مني فعله؟

قال الصوت الأول:

- خذ ورقة وقلما واكتب اعترافك ثم أيد الاعترافات التي وردت عليك.

وقال الثاني:

- وكن صادقا فنحن نعرف كل شيء من التمويه.

وقلت في سري:

- الغريق لا يخاف الطعنات.

وتناولت الورقة والقلم وارتكنت في زاوية الغرفة، أسندت ظهري إلى الحائط ومددت ساقي تماما كما كنت أفعل عند كتابة واجباتي المدرسية أيام الدراسة الابتدائية، وأخذت أخطط تارة وأكتب تارة أخرى وكسرت رقابا جديدة وأمعنت في كسر رقاب أخرى. ثم ألقيت بالورقة والقلم وزفرت بقوة.

- هل انتهيت؟

- نعم.

- هناك مسألة صغيرة ثانية.

ورفعت رأسي مستفهما:

- ما هي؟

- أن تنشر براءة في إحدى الصحف.

وقلت:

- حاضر.

- والآن اعتبر نفسك مطلق السراح.

وقف كريم الناصري أمامها، وكان يدخن، إنه يدخن دائما، وقد وقعت عليه أولى نظراتها وكان يدخن، في فرحه وغضبه كان يدخن أيضا، وربما يضاجع النساء وهو يدخن كذلك. وتابعت نظراتها دخان سيجارته الذي يمتد فاترا كاحتراق قلب.

- مريم، هل أنت حاقدة علي؟

قالت بلا مبالاة:

- لا داعي للحقد، نحن شريكان في الجريمة.

واستمرت في تقليب المعاملات المكدسة أمامها.

- قد أكون أنانيا لا أقدم للذين يقتربون مني إلا الألم.

ثم اتجه صوب مكانه وجلس وعيناه ما زالتا مصوبتين إليها. التقط القلم وأخذ يرسم حيوانات خرافية وأشجارا وسفنا وعيون شياطين. ثم مزق الورقة وألقى بها في سلة المهملات، ونهض من مكانه ووقف أمام النافذة، تطلع إلى البيوت والدكاكين الصغيرة والملابس الملونة وقد عرضت للشمس. ثم أعاد نظراته إلى داخل الغرفة وتأمل مريم وهي منسجمة مع المعاملات، وبانت لعينيه صغيرة مسكينة لاأمل لها بشيء فقد توقفت حياتها عن التجدد وأخذت هذا المنحى المحتضر الرتيب.

وشعر في قرارته برثاء عميق لها وقارن بين وضعه ووضعها فوجد الهوة شاسعة. إنها مقيدة مترسبة ولن تنطلق أبدا. أما هو فشيء آخر، بلا مرتكز ولا التزامات، ينام ويصحو، يركض ويتشاجر، يسافر أويمكث، يغتني أو يفلس بدون أن ينتابه أي هاجس من خوف أو تردد. لا يعرف أسعار الخضار وليس له علم بإيجارات البيوت، ولا يهمه إن جاءه الموت اليوم أو غدا، فليست هناك عيون يفقأها اليتم من بعده، يحمله عناد أبدي لولاه لكان الآن معلما في إحدى قرى الناصرية تطارده عيون المخبرين وتضبط له صحائف أعمال باهتة، وتمتلئ ملفته الخاصة بالتقارير المضحكة.

اقترب منها وقال:

- مريم؟

- نعم.

- أريد أن أقول لك شيئا مهما.

وألقت المعاملات من يدها ورفعت إليه وجهها المستكين، فرآه جافا ومرهقا وليس فيه عرق حي غير هاتين العينين النابضتين اللتين يخنقهما ليل عقيم.

- إنني منصتة إليك.

فأجاب بصوت هادئ:

- إنني مسافر غدا إلى الكويت. لقد استقلت من الجريدة والشركة معا وسأبدأ حياتي هناك من جديد.

وابتلعها سكوت حائر من كلماته المفاجئة هذه، وحاولت أن تبقي على تماسكها وهي تتساءل:

- بسببي؟

وأجاب مسرعا:

- ليس بسببك أنت بالضبط، ولكنه وضع استثنائي لا بد من تخطيه.

وابتلعت نصل رده وهي تطرق. ثم مرت فترة صمت لائبة ارتفع بعدها صوتها متسائلا:

- أهكذا بسهولة تشطب على الأشياء؟

وهز يده قائلا:

- لا تعاتبيني على شيء أرجوك. العذاب كبير وقد أوغلنا في دروب محرمة ويجب أن ننسحب منها مسرعين قبل أن يفوت الأوان.

وأطرقت منتحبة ثم تساءلت من بين دموعها:

- أتتزوجني؟

فابتسم وهو يهز يده بهزء قبل أن يقول:

هذه نكتة قديمة يا مريم ويجب ألا تضحكنا بعد.

مصادر دراسة "الوشم"

عندما صدرت "الوشم" في طبعتها الأولى عن **دار العودة** ببيروت عام 1972، قوبلت بحفاوة نقدية كبيرة فأصبحت واحدة من الروايات البارزة في أدبنا العربي، كما أصبحت الرواية الأكثر شهرة والأوسع انتشارا في الأدب العراقي رغم أنها لم تطبع في بغداد إلا مرة واحدة، ولم تدخل منها إلى بلد الكاتب "العراق" إلا نسخ محدودة. وطبعاتها الخمس صدرت كلها مابين بيروت وتونس، وقد توفرت لدينا بعض المقالات التي كتبت عنها وهي ليست كل ماكتب عنها نثبتها أدناه مع هذه الطبعة المغربية المتميزة تعميما للفائدة:

1- "الوشم والسقوط السياسي"، انطوان الفرزلي، مجلة الأحد، بيروت، العدد 1048 لسنة 1972.

2- "وشم الزمن على جسد المناضل"، محمد زفزاف، ملحق جريدة العلم المغربية، العدد 145 للسنة الرابعة.

3- "الوشم"، عبد الكريم غلاب، مجلة "الأديب المعاصر"، بغداد العدد 2 لشهر مارس 1972، وأعيد نشرها في ملحق جريدة "العلم" المغربية في 30 حزيران (جوان) 1972.

4- "الوشم"، فوزي كريم، "جريدة الراصد"، بغداد في 23 - 1 - 1972.

5- "ذو النون أيوب يتحدث عن الوشم"، جريدة "الجمهورية" بغداد، في 14-10-1972.

6- "أزمـة البـطل في الـوشم"، صـلاح الديـن خليـل، جـريدة "الجمهورية" - بغداد في 25-2-1972.
7- "حول رواية الوشم"، عبدالجبـار داود البصري، جريدة "الثورة"، بغداد في 17-2-1972.
8- "قـراءة لرواية الوشم"، عـبدالجـبـار عـباس، جـريدة "الراصـد"، بغداد في 27-2-1972.
9- "الوشم"، صـالح سلمـان، مـجلة "اليـقظة"، الكويت العـدد 246 لسنة 1972.
10- "اللاانتـمـاء في الوشم"، مـؤيد الـطلال، مـجلة "ألف باء"، بغداد العدد 181.
11- "شيء عن الوشم"، عـامر يعـقـوب، مـجلة "وعي العـمـال"، بغداد، العدد 152.
12- "هوامش على رواية عـراقيـة شابـة"، عبـدالستـار ناصر، مـجلة "ألف باء"، بغداد في 8-3-1972.
13- "الوشم وظلال الرواية العالميـة"، مزهر جاسم، مـجلة "الهدف" بيروت، العدد 154.
14- "الوشم، عراقي يـقص علينا"، أدوار الزغبي، جـريدة "النهار"، بيروت في 26-1-1972.
15- "الوشم والبـحث عن الهرب غيـر النهائي"، علي جـعفـر العلاق، مجلة "المثقف العربي" بغداد، العدد 6 لشهر حزيران (جوان) 1972.
16- "أبطـال الوشم مـهـزومـون"، عـاصم الجنـدي، مـجلة "الدستور" بيروت في 8-1-1973.
17- "الوشم"، عبدالله خيرت، مـجلة "الجديد"، القاهرة، العدد 29 لسنة 1973.

18- "الوشم رواية السقوط السياسي والإحباط"، محمد الجزائري، مجلة "الآداب"، بيروت، العدد 11 السنة 1974. ثم نشرت مع الطبعة الثانية للرواية، منشورات الدار العربية للكتاب (تونس - ليبيا) 1977.

19- "الوشم بين الضرورة الفكرية والضرورة الفنية"، عبد الأمير الحبيب، مجلة "الثقافة"، العدد 4 لشهر نيسان (أبريل) 1972.

20- "الوشم"، محمد أحمد العلي، مجلة "الكلمة"، العراق، العدد 2 لسنة 1982.

21- "الوشم رصيد جيد للمثقفين العراقيين"، غازي العبادي، مجلة "الثقافة"، بغداد، العدد 4 لشهر نيسان (أبريل) 1972.

22- "الوشم لن توقف الانتماء"، سليمان البكري، مجلة "الثقافة" العدد 4 لشهر نيسان (أبريل) 1972. ثم نشر المقال فصلا في كتاب البكري: "عبدالرحمن الربيعي وتجديد القصة العراقية" منشورات المركز الثقافي والاجتماعي لجامعة الموصل، العراق 1976.

23- "الوشم"، باسم عبدالحميد حمودي، فصل من كتابه "الوجه الثالث للمرأة" الصادر في بغداد.

24- "الوشم"، جاسم عبدالرحيم، مجلة "البحرين"، (البحرين)، العدد 243 لسنة 1972.

25- "الوشم"، أنوار الغساني، مجلة "الموقف الأدبي"، دمشق، العدد 2 لسنة 1972.

26- "الوشم والخيبة السياسية"، يوسف أبو النادي، مجلة "اليقظة"، الكويت، العدد 248 في 12-3-1972.

27- "الوشم"، نهلة صدقي، مجلة "الأسبوع العربي"، بيروت، العدد 645.

28- "الوشم رواية عن خيبة المثقفين"، ياسين رفاعية، ملحق جريدة "النهار"، بيروت في 23-7-1972.
29- "الوشم تثير ضجة أدبية"، جريدة "التآخي"، بغداد، العدد 1098 في 31-7-1972.
30- "رواية الوشم بين الواقعية والرمز"، داود سلمان الشويلي، جريدة "المجتمع"، بغداد في 3-8-1972.
31- "الوشم هل هي قصتنا جميعا؟"، محمد الأسعد، مجلة "الطليعة"، الكويت، العدد 365 في 11-3- 1972.
32- "الخيبة السياسية في الوشم"، فرح علي السلطاني، مجلة "الثقافة"، بغداد، العدد 7، لسنة 1974.
33- "الوشم... البطل السلبي ذو الوجوه المتعددة"، د. أفنان القاسم، مجلة "الموقف الأدبي"، دمشق، العدد المزدوج لشهري (مارس - أبريل) 1980.
34- "الوشم"، ساسي حمام، مجلة "الحياة الثقافية"، تونس، العدد 1 لسنة 1979.
35- "في الوشم... السجن يكشف خيبة المثقفين السياسية"، نزيه أبو نضال، جريدة "اللواء"، بيروت في 20-10-1980. وقد نشر المقال فصلا في كتاب أبو نضال "أدب السجون" الصادر في بيروت.
36- "الوشم رواية عراقية"، ياسين رفاعية، مجلة "الحسناء"، بيروت، العدد 539 في 24-12-1972.
37- "الوشم والأحزاب التائهة والأفراد المغتربون"، مجلة "الحسناء"، بيروت العدد 329.
38- "الوشم"، مجلة "الكفاح العربي"، بيروت، العدد 2- 685، في 3-7-1978.

39- "الوشم رواية نسجت على ضفاف نهر الواقعية"، كوثر التونسي، جريدة "العمل"، تونس في 17-2-1983.
40- "الربيعي وحديث عن روايته الوشم"، مجلة "المجالس المصورة"، الكويت في 6-5-1972.
41- "تجربة البناء اليساري بين الانفصال واستمرارية الانتماء من خلال رواية الوشم"، المنصف وناس، مجلة "دراسات عربية"، بيروت، العدد 5 لشهر مارس 1982.
42- "تحليل نص من رواية الوشم"، أسماء المصمودي، مجلة "قضايا عربية"، بيروت، العدد 5 لشهر مارس 1979.
43- "الوشم وتجربة الشكل الفني في الرواية العربية"، سمر روحي الفيصل، مجلة "الثقافة"، دمشق، عدد نوفمبر 1983.
44- "الوشم والأنهار واختيار النموذج السلبي للشخصية"، رزاق ابراهيم حسن، مجلة "صوت الطلبة"، بغداد، العدد 92 لشهر شباط (فيفري) 1976.
45- "الربيعي بين الخيبة والارتكاز السياسي"، مؤيد الطلال، فصل من كتابه "الواقعية الاجتماعية النقدية في القصة العراقية"، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1982.
46- "نحو قارئ اجتماعي"، عبدالرحمن طهمازي، جريدة "طريق الشعب"، بغداد في 16-10-1974.
47- كتاب "عبدالرحمن مجيد الربيعي روائيا"، تأليف: مختلفون، تقديم: ماجد السامرائي، منشورات الدار العربية للموسوعات، بيروت 1984. وقد ضم مقالات عن رواية الوشم هي: "الانتهازي الثائر يقع في شرك المبادئ" للدكتور علي الراعي (مصر)، "المطارد على الدوام بين الانتصار على كل شيء حتى الحرية" لمحمد شكري (المغرب)،

"ملاحظات حول المكانة الجديدة للوشم" للدكتور محسن الموسوي (العراق)، "كريم الناصري يقلق الكنيسة في الفعل والتجربة" لعبدالقادر الشاوي (المغرب)، "الشخصيات في رواية الوشم" للشاذلي بن عمار (تونس)، "حول الوشم" لشمس الدين موسى (مصر)، "ماذا تعني الطهارة في رواية الوشم؟" لعبد الله خليفة (البحرين)، "قراءة في وشم الربيعي" للدكتور أحمد أبو مطر (فلسطين).

ملاحظة: في الكتاب هناك إشارات لأماكن نشر هذه المقالات أصلا وتواريخ هذا النشر.

48- "شيء عن الوشم"، عزيز السيد جاسم، نشر المقال مع الطبعة الثانية للرواية، منشورات الدار العربية لكتاب، تونس - ليبيا 1977.

49- فصل من كتاب "شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة" لمحمد رجب الباردي، منشورات الدار التونسية للنشر، سلسلة موافقات 1993.

50- "بداية الوشم وعلاقتها بسائر النص"، محمد نجيب العلمي، مجلة "دراسات عربية"، بيروت، العدد 2/1 نوفمبر، ديسمبر لسنة 1992. وقد نشر المقال نفسه في مجلة "آفاق عربية"، بغداد شباط (فيفري) 1992.

51- "إشكالية الموت في الرواية العربية والغربية"، رسالة دكتوراه لأحمد الزعبي، وفيها فصل عن كل من الوشم والوكر للربيعي، منشورات دار الكتاني، الأردن، أربد، عام 1994.

52- "الوشم ذلك العار الذي لايحمي"، محسن ملوح، جريدة "الصدى"، تونس في 26-4-1994.

53- "الوشم... الإحباط السياسي وسقوط المبادئ"، زيد خليل القرالة، جريدة الرأي، الأردن في 26-1-1994.

54- فصل عن الوشم من كتاب "مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة" لعبدالصمد زايد، منشورات الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1988.
55- شهادة للربيعي بعنوان "الوشم لماذا وكيف كتبتها؟"، جريدة "القدس العربي"، لندن في 25-1-1992.
56- كتاب "عبد الرحمن مجيد الربيعي بين الرواية والقصة القصيرة"، (رسالة دبلوم عليا) تأليف عبدالرضا علي، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1976.
57- "الوشم رواية الربيعي والقصة العراقية الحديثة"، رسالة دكتوراه للمستشرقة الإيطالية ماتيلدا غالياردي، منشورات دار الطليعة، بيروت 1979.
58- "عبدالرحمن مجيد الربيعي والبطل السلبي في القصة العربية"، (رسالة دكتوراه) لأفنان القاسم، منشورات عالم الكتب، بيروت 1984.
59- "مدخل لتجربة الربيعي القصصية في 38 حوارا"، تأليف (مختلفون)، تقديم ياسين رفاعية، منشورات دار النضال، بيروت 1984.
60- "عبدالرحمن مجيد الربيعي صورة أديب عراقي معاصر"، للمستشرقة الألمانية كريستينا شتوك، ترجمة غانم محمود، مجلة "آفاق عربية"، بغداد، العدد المزدوج 3 - 4 - مارس - أبريل 1995.
61- "البنية السردية في روايات عبدالرحمن مجيد الربيعي"، (رسالة ماجستير مخطوطة) لسعد عبدالحسين العتابي من كلية التربية بالجامعة المستنصرية، بغداد 1994.
62- "دور الربيعي في تجديد قصة الستينات"، (رسالة ماجستير مخطوطة باللغة الإسبانية) لماريا لويزا بريتو كونزالز من جامعة مدريد المستقلة (أوتونوما).

63- "المرأة والمجتمع في قصص عبدالرحمن مجيد الربيعي" لمحمد ياسين (رسالة ماجستير مخطوطة) من قسم الفلسفة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجامعة اللبنانية، بيروت.

64- "البلاغة المجازية في روايات الربيعي وقصصه"، للمستشرقة الألمانية كريستينا ستوك (رسالة دكتوراه مخطوطة باللغة الألمانية)؛ من جامعة لايبزك 1988.

65- "القمر والأسوار رواية للربيعي... البنية والدلالة" لمحمود الهميسي، (شهادة الكفاءة في البحث - مخطوطة -) جامعة تونس الأولى كلية الآداب 1988-1989.

66- "الفن الروائي عند الربيعي من خلال روايته خطوط الطول.. خطوط العرض"، لعبدالكريم البدوي (شهادة الكفاءة في البحث - مخطوطة)، الجامعة التونسية، جامعة الوسط، كلية الآداب والعلوم الانسانية، القيروان 1991-1992.

67- "الانتماء والسقوط في الرواية العربية" لعبدالحق الرباعي، (شهادة الكفاءة في البحث - مخطوطة). ويتناول فيها ثلاث روايات هي: "الشحاذ" لنجيب محفوظ، "الوشم" للربيعي، و"شرق المتوسط" لمنيف. كلية الآداب 9 آفريل جامعة تونس الأولى، 1991-1992.

68- "النقد الاجتماعي في المجموعة القصصية: ذاكرة المدينة" لعبدالرحمن مجيد الربيعي، رسالة دبلوم عليا باللغة الألمانية (مخطوطة) لأندرياس كريتس، حامعة لايبزك، ألمانيا.

69- "كتابة التيه في: "السقطة" لألبير كامي و"السيف والسفينة" لعبدالرحمن مجيد الربيعي"، رسالة ماجستير باللغة الفرنسية (مخطوطة) لمليكة الزغل، جامعة السوربون، باريس.

70- فصل من كتاب "المدينة في القصة العراقية" لرزاق ابراهيم حسن، سلسلة الموسوعة الصغيرة، ببغداد 1984.
71- فصل من كتاب "أسئلة الرواية" لجهاد فاضل، منشورات الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا.
72- فصل من كتاب "أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية" لصبري مسلم حمادي، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
73- كتاب "عبدالرحمن مجيد الربيعي في قصصه القصيرة - تجاوز العادي واصطفاء النموذجي"، تأليف (مختلفون) تقديم جهاد فاضل، منشورات دار النضال، بيروت 1984.
74- فصل من كتاب "البطل الثوري في الرواية العربية الحديثة" لأحمد محمد عطية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق 1977.
75- محمد عفط، فصل من رسالة دكتوراه دولة عن رواية "الوشم" تحت عنوان: "الوشم بين كشف واقع القمع ونزع القداسة"، (مخطوطة)، عنوان الرسالة: «المقدس والروائي: في علاقات المقدس الإسلامي والرواية العربية». شعبة اللغة العربية وآدابها - جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - فاس، ظهر المهراز (1999-2000).
76- "المكان في روايات عبدالرحمن مجيد الربيعي"، حسن سالم هندي (مخطوطة) الجامعة المستنصرية، قسم اللغة العربية - بغداد 1999.
77- "الوشم للربيعي"، مصطفى عطية، مجلة "مرآة الوسط"، تونس عدد شهر تموز (جويلية) 1996.
78- أحمد محمد عطية، دراسة للوشم في كتابه "الرواية السياسية"، منشورات مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة النشر (لاتوجد).

79- محمد شكري، قراءة للوشم في كتابه «غواية الشحرور الأبيض»، الطبعة المغربية، مطبعة شركة سليكي اخوان (طنجة) 1998.
80- محمد الراوي، البطل في وشم الربيعي (قسمان) الأول، جريدة "الشروق"، تونس 15-7-1998. والثاني، جريدة "الشروق" في 16-7-1998.
81- عبدالجبار داود البصري، "حمى الاغتراب - رواية الوشم"، مجلة "الحياة الثقافية"، تونس، العدد 75 ماي 1996.
82- سليمان البكري، "الخطاب السياسي في روايات الربيعي"، مجلة "الأقلام"، بغداد، العدد المزدوج 11- 12 نوفمبر - ديسمبر 1996. ونشر أيضا في مجلة "الاتحاف"، تونس، العدد 74- ديسمبر 1996.
83- ماجد السامرائي، "الوشم رواية لها قارئها الدائم"، مجلة "آفاق عربية"، بغداد، عدد شهري مارس وأبريل 1996. وأعيد نشره بجريدة "الصباح"، تونس في 15-6-1996.
84- مجيد العمران، "قراءة لرواية الوشم"، جريدة "الصباح"، تونس في 13-2-1997.
85- المصطفى اجماهري، "الوشم للربيعي مجددا في خضم التحولات العراقية"، جريدة "القدس العربي"، لندن في 12-9-1996.
86- "السجن في الرواية العربية" لفوزية سعيد، وفيه دراسة عن رواية "الوشم"، شهادة التعميق في البحث، جامعة تونس 1، كلية الآداب، منوبة تونس (مخطوطة)، سنة 1998.
87- عبدالعزيز شبيل، "كباقي الوشم على باطن الروح"، مقدمة الطبعة الخامسة من "الوشم"، منشورات دار المعارف، سوسة (تونس) 1996.

صدر للمؤلف(*)

أ- في القصة القصيرة:

1- «السيف والسفينة»- ط 4، دار نقوش عربية، تونس1996.

2- « الظل في الرأس»، ط 3، الطليعة، بيروت 1986.

3- «وجوه من رحلة التعب»، ط2، دار الطليعة، بيروت 1979.

4- «المواسم الأخرى»، ط 2، دارالطليعة، بيروت 1979.

5- «عيون في حلم»، ط 2، دار الطليعة، بيروت 1979.

6- «الخيول»، ط 2 المؤسسة العربية للدراسات والنش، بيروت 1979.

7- « ذاكرة المدينة»، ط2، دار الطليعة، بيروت 1997.

8- «الأفواه»، دار الآداب، بيروت 1979.

9- «صولة في ميدان قاحل»، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1984.

10- «سر الماء (مختارات قصصية)»، ط2 دار المعارف، سوسة (تونس) 1993.

11- «نار لشتاء القلب»، ط2 دار سحر، تونس 1996.

12- «السومري»، ط 2، دار المعارف، سوسة (تونس) 1995.

13- «حدث هذا في ليلة تونسية (مختارات قصصية)»، منشورات وكالة الصحافة العربية،

(*) هذه المؤلفات مرتبة طبقا لتواريخ صدور الطبعات الأخيرة.

القاهرة، سلسلة (نوافذ) 1998.

14- «امرأة من هنا.. رجل من هناك»، منشورات دار المعارف، سوسة (تونس) 1998.

ب- في الرواية:

1- «الوشم»، ط 5، دار المعارف، سوسة (تونس) 1996.

2- «الأنهار»، ط 4، دار الأقواس، تونس 1991.

3- «القمر والأسوار»، ط 4، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986.

4- «خطوط الطول.. خطوط العرض»، ط 2، دار المعارف، سوسة (تونس) 1993.

5- «الوكر»، ط2، دار المعارف ، سوسة (تونس) 1994.

6- «عيون في الحلم»، ط1، للرواية مستقلة في كتاب بعد أن صدرت مع مجموعة قصصية بنفس العنوان، منشورات دار سحر (تونس) 1996.

7- «كلام ليل» (معدة للطبع).

ج- في قصيدة النثر:

1- «للحب والمستحيل»، منشورات المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت 1983.

2- «امرأة لكل الأعوام»، منشورات عالم الكتب، بيروت 1985.

3- «شهريار يبحر»، منشورات عالم الكتب، بيروت 1985.

4- «ملامح من الوجه المسافر»، منشورات عالم الكتب، بيروت 1987.

5- «أسئلة العاشق»، منشورات دار النورس، تونس 1989.

6- «علامات على خارطة القلب»، منشورات دار النضال، بيروت 1987.

7- «فصول من كتاب الحب التونسي»، منشورات مجلة "الحركة الشعرية" المكسيك 2000.

د- في النقد :

1- «الشاطئ الجديد»، ط 2، منشورات الدار العربية للكتاب (تونس-ليبيا) 1983.

2- «أصوات وخطوات»، ط 2، دار المعارف سوسة (تونس) 1994.

3- «رؤى وظلال»، دار نقوش عربية، تونس 1994.

4- « من النافذة إلى الأفق»، مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، سوسة (تونس) 1995.

5- «من سومر إلى قرطاج»، قراءات في الأدب العربي المغاربي، منشورات دار المعارف، سوسة 1997.

6- ظلال تونسية، 38 قصة قصيرة تونسية مع مقدمة - منشورات وكالة الصحافة العربية، القاهرة 2000.

هـ في السيرة:

1- «من ذاكرة تلك الأيام» جوانب من سيرة أدبية منشورات دار المعارف، سوسة (تونس) 2000.

2- «الخروج من بيت الطاعة» -شهادات أدبية -اختيار وتقديم خالد محمد غازي، منشورات وكالة الصحافة العربية (القاهرة)، سلسلة (نوافذ) 1998.

كُتِب عن
أعمال الرَبيعي الأدبية

1- «عبد الرحمان مجيد الربيعي وتجديد القصة العراقية»، تأليف سليمان البكري، منشورات المركز الثقافي والاِجتماعي لجامعة الموصل، العراق 1976.

2- «عبد الرحمان مجيد الربيعي بين الرواية والقصة القصيرة»، تأليف عبد الرضا علي، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1977.

3- «الوشم رواية الربيعي والقصة العربية الحديثة»، تأليف المستشرقة الإيطالية ماتيلدا غالياردي، ترجمة عبد الله جواد، ط 2، منشورات دار الطليعة، بيروت 1979.

4- «عبد الرحمان مجيد الربيعي روائيا»، تأليف (مختلفون)، تقديم ماجد السامرائي، منشورات الدار العربية للموسوعات، بيروت 1984.

5- «عبد الرحمان مجيد الربيعي في قصصه القصيرة - تجاوز العادي إلى اصطفاء النموذجي»، تأليف (مختلفون)، تقديم جهاد فاضل، منشورات دار النضال، بيروت 1984.

6- «مدخل لتجربة عبد الرحمان مجيد الربيعي القصصية في 38حوارا»، تأليف (مختلفون)، تقديم ياسين رفاعية، منشورات دار النضال، بيروت 1984.

7- «عبد الرحمان مجيد الربيعي والبطل السلبي في القصة العربية»، تأليف د. أفنان القاسم، منشورات عالم الكتب، بيروت 1984.

8- «البنية السردية في روايات الربيعي»، تأليف سعد العتابي (تحت الطبع).

9- «عبد الرحمان مجيد الربيعي في تونس»- بإشراف د. مجمد صالح بن عمر- منشورات دار الخدمات العامة للنشر، تونس 1999، سلسلة "مقاربات للأدب التونسي" ساهم فيه كل من: د. جعفر صادق محمد (العراق)، د. عبد الفتاح الحجمري (المغرب)، د. صبري مسلم حمادي(العراق)، ومن تونس: د. محمد الباردي، د. مصطفى التواتي، الأستاذ محمد البدوي، د. محمود الهميسي، د. محمد الغزي، د. محمد الهادي المطوي، الأستاذ مصطفى مدايني، د. بوشوشة بن جمعة.

صدر عن منشورات الزمن

I- كتاب الجيب

الكتاب 1 / أبريل 1999

عبد الله ابراهيم : ثورة العقل

الكتاب 2 / مايو 1999

عبد الإله بلقزيز : العنف والديمقراطية

الكتاب 3 / يونيو 1999

محمد ضريف : الحركة الإسلامية : النشأة والتطور

الكتاب 4 / يوليوز 1999

محمد سبيلا : المغرب في مواجهة الحداثة

الكتاب 5 / غشت 1999

عبد الكريم برشيد : المؤذنون في مالطة

الكتاب 6 / سبتمبر 1999

حسن أوريد : الإسلام والغرب والعولمة

الكتاب 7 / أكتوبر 1999

عبد الواحد الناصر : حرب كوسوفو : الوجه الآخر للعولمة

الكتاب 8 / نوفمبر 1999

عبد السلام حيمر : مسارات التحول السوسيولوجي في المغرب

الكتاب 9/دسمبر 1999

أحمد الريسوني : الفكر المقاصدي : قواعده وفوائده

الكتاب 10 / يناير 2000

ادريس كثير - عز الدين الخطابي : أسئلة الفلسفة المغربية

- الكتاب 11 / فبراير 2000

ادريس الخرشاف. المعرفة الإسلامية والعولمة، أي آفاق ؟

- الكتاب 12 / مارس 2000

سعيد يقطين : الأدب والمؤسسة

- الكتاب 13 / أبريل 2000

طه عبد الرحمن : حورات من أجل المستقبل

- الكتاب 14/ مايو 2000

محمد شقرون : الكتابة والسلطة والحداثة

- الكتاب 15 / يونيو 2000

نور الدين أفاية : أسئلة النهضة في المغرب

- الكتاب 16 / يوليوز 2000

محمد أسليم : الإسلام والسحر

- الكتاب 17/ غشت 2000

عبد الإله بلقزيز : "حزب الله" اللبناني

- الكتاب 18 / سبتمبر 2000

المهدي المنجرة : عولمة العولمة

- الكتاب 19 / أكتوبر 2000

أحمد هوزلي : المغرب : البترول والتنمية

- الكتاب 20 / نوفمبر 2000

الميلودي شغموم : المعاصرة والمواطنة

- الكتاب 21 / دسمبر 2000

محمد يتيم : الحركة الإسلامية بين الثقافي والسياسي

• **الكتاب** 22 / **يناير** 2001

سعيد بنسعيد العلوي : الإسلام وأسئلة الحاضر

. **الكتاب** 23 / **فبراير** 2001

يحيى اليحياوي : العولمة ومجتمع الإعلام

• **الكتاب** 24 / **مارس** 2001

زهور كُرام : في ضيافة الرقابة

. **الكتاب** 25 / **أبريل** 2001

مالكة العاصمي : نحن وأسئلة المستقبل

. **الكتاب** 26 / 2001

عبد الهادي بوطالب : العالم ليس سلعة

. **الكتاب** 27/ 2001

مصطفى المسناوي : أبحاث في السينما المغربية

• **الكتاب** 28/ 2001

عبد الواحد أگـمير: الهجرة إلى المـوت

. **الكتاب** 29/ 2001

سعيد بنـگراد : السميائيات السردية

. **الكتاب** 30/ 2001

بنسالم حيميش : في معرفة الآخر

. **الكتاب** 31/ 2001

عبد النبي ذاكر : صورة أمريكا في متخيل الرحالين العرب

• **الكتاب** 32/ 2002

مجموعة من الكتاب : الديانات السماوية وموقفها من العنف

روايات الزمن - II

• الرواية 1

الولي الطاهر
يعود إلى مقامه الزكي

الطاهر وطار

• الرواية 2

ضحكة زرقاء

محمد عز الدين التازي

• الرواية 3

قطار الصعيد

يوسف القعيد

• الرواية 4

ديك الشمال

محمد الهرادي

• الرواية 5

الوليمة المتنقلة

للروائي العالمي إرنست همنغواي
ترجمة: علي القاسمي

III- سلسلة ضفاف

* العدد الأول / التحليل النفسي

كاترين كليمان

ترجمة : محمد سبيلا وحسن أحجيج

* العدد الثاني / التحليل النصي

رولان بارت

ترجمة : عبد الكبير الشرقاوي

* العدد الثالث / سقوط الأمبراطورية الحمراء

تأليف :د.ميخائيل فوسلينسكي

ترجمة : د.سناء المصطفى الموصلي

تقديم: د. اسماعيل العلوي

* العدد الرابع / أسرار مهمتي بالمغرب

تأليف : جيلبير كرانفال

ترجمة : محمد بن الشيخ

تقديم: د. عبد الهادي بوطالب

* العدد الخامس / رسائل إلى شاعر ناشئ

إلى روائي ناشئ

تأليف: ماريا ريلكه/فارغاس يوصا

ترجمة وتقديم : أحمد المديني

❖❖❖

صدر عن الزمن أيضا :

الترجمة المغربية لكتاب روجي جارودي :

الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية

الطبعة 1 و2 و 3

Les Mythes fondateurs de la politique israélienne

par Roger Garaudy

❖❖❖

❖❖❖

صدر عن الزمن أيضا :

الترجمة الفرنسية لكتاب عبد الهادي بوطالب :

نصف قرن في السياسة

UN DEMI SIECLE

DANS LES ARCANES DE LA POLITIQUE

PREFACE : Dr. MOHAMED SABILA

❖❖❖

سلسلة شرفات -IV

❖ أبحاث في المسرح المغربي
حسن المنيعي

❖ زمن الانتفاضة
عبد الإله بلقزيز

❖ السلطة والفكر
نور الدين أفاية

❖ التجريب في النقد والدراما
عبد الرحمن بن زيدان

❖ الديمقراطية بين عالمية الفكرة وخصوصية التطبيق
ابراهيم إبراش

❖ نصف قرن في السياسة
عبد الهادي بوطالب

❖ من روائع الأدب المغربي... قراءات
علي القاسمي

٧ -

- **الفكر التاريخي في الغرب الإسلامي**

محمود اسماعيل

- **مستقبل الكتابة التاريخية**

إبراهيم القادري بوتشيش

- **ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي**

عبد الإله بنمليح

Abdul-Rahman Majeed Al-Rubaie

6

AL - WASHM

ROMAN

Editions AZ-ZAMAN

روايات الزمن



الوشم

«أفلح الربيعي عن طريق الصدق الفني والجسارة الفكرية معا في أن يخلق شخصية عربية تمثل المرتد، تقف دون استحياء بجانب زميلاتها في الآداب العالمية، بيجور بار بارا مثلا في مسرحية برناردو شو».

د.علي الراعي (مصر)

«هل الحياة في المعتقل تكون أحيانا أفضل من الحياة خارجه؟ إن هذه المواقتة بين الجواني والبراني يمزجها الربيعي بتكنيك واقعي، سريالي، لا حلم بلا واقع ولا واقع بلا حلم، أما التقنية الرائعة فهي ساعة بلا عقارب، تذكرنا بتكنيك الروائيين الكبار من **جويس** إلى وليم **فولكنر**، لابد من الإحساس بالزمن، بعمق، لإدراك هذا التوقيت الموزع».

محمد شكري (المغرب)

«الوشم وشمنا جميعا، عرفنا أم تناسينا، وفضل الربيعي (الموضوعي والفني) أنه وضعنا في "دائرته" ووضع (الوشم) المعنى على كل بقعة من أجسادنا، إنه وشمنا و"روايتنا" جميعا».

د.أحمد أبو مطر (فلسطين)

«إن رواية **الوشم** تعتبر صورة حقيقية للوضع الاجتماعي والسياسي الذي عاشه العراق لفترة معينة، وقد أعطت الإنسان العراقي صورته الحقيقية بما فيها من تناقضات، الشيء الذي جعلها شاهدا حيا على مرحلة تاريخية معينة تعج بالفوضى والضجيج والارتباك».

محمد زفزاف (المغرب)

منشورات الزمن

لوحة الغلاف: للفنان السوري أحمد علاء الدين